يوسف الدموكي
عزاء فارغ

عصير الكتب

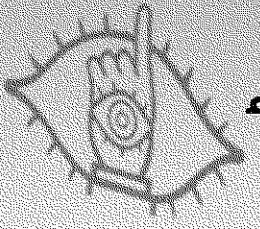

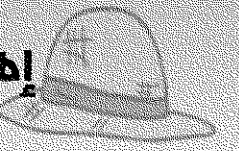

إهداء

إلى

جِدعان المُخيَّم

إهداءٌ قبل كل أحد، وبعد كل أحد

إلى أهلي الذين أحبهم ويغمرونني بحبهم، ومنذ ميلادي قالوا لي: بجانب «مصريَّتِنا» التي نعتز بها، فإنَّ هويتنا جميعًا -بكل بلادنا وحبنا لها- فلسطين.

وإهداءٌ إلى كل أحد

للسادة القُرَّاء، الذين لم تُهدَ إليهم روايةٌ من قبل.

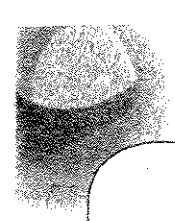

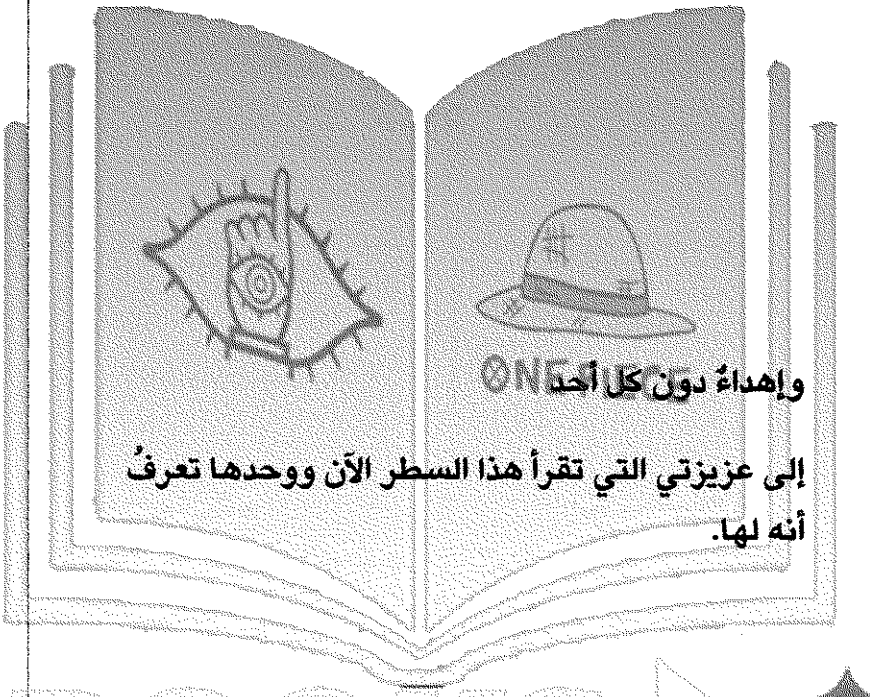

وإهداءً دون كل أحد

إلى عزيزتي التي تقرأ هذا السطر الآن ووحدها تعرفُ أنه لها.

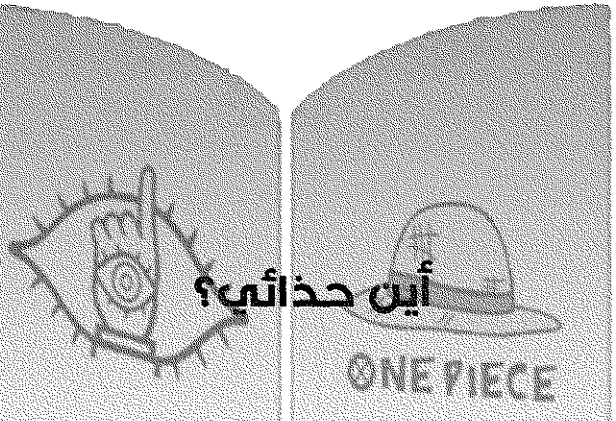

أين حذائي؟

لم يكن صوتَ بكاء، كان صوتَ كَتمِ البكاء، محاولةً حثيثةً من سيدةٍ بين الأربعين والخمسين، شعرها أسود فاحم، كل شيءٍ فيها يدلُّ على الكبر إلا رأسها الذي يقف مُستنكرًا مرور الأيام، يتبجَّحُ في وجه الزمان ويقول له لا أراك. جلبابُها أسود، في أطرافِه بقايا من الوحل، وحجابها مُهمَلٌ على كتفيها، تُمسِكُ بجانبٍ منه تكتم به فمها، وأزيزُ البكاء يغلي تحته، وخريرُ الدموع ينساب حارًّا يكادُ يحفر خديها. جريتُ إليها في آخر الغُرفة، في ركن البيت، بينما تعتصر الدموع مُقلَتيها، رأتني فسكتت، أو كَتَمت

أنفاسَها، وعبثًا حاولَت تمثيلَ ابتسامةٍ مُصطنعة وقد وُلدت ميتةً على شفتيها، سألتني:

– لِمَ لا تلعبُ في الحوش؟

صمتُّ، نَظرَت إليَّ بعُمقٍ وفتحت لي ذراعيها، كأنها تستجدي ضمي، تتحايلُ عليَّ لأنها تشعر بأني أنا مَن أضمُّها، ثم انفجرت في البكاء.

ظلَّت تبكي وأنا مشفقٌ عليها، أطبطب عليها بيدي التي لا تبلغ من العمر إلا خمس عشرة سنة، ثلث إنسانٍ في حضن إنسانٍ كامل، يحاول الصغيرُ أن يُرَبِّتَ على ظهر الكبير، جزءٌ يحاول أن يضمَّ أربعةَ أضعافِه. أشعرُ بنار القهر في أحشاء أمي، هل رأيتَ من قبل بركانًا يبكي؟ لن يقذفَ ماءً، وإنما حِمَمًا.

لم أجرؤ على طلب الإجابة، وإن تجرأتُ على السؤال، أقول: ما بك؟ فأسمع ضجيجًا، أسمع آهاتٍ مكتومةً في كتفي، أسمع سيدةً تضعف للمرة الأولى. خمسُ سنواتٍ لم أرَها تبكي، كنتُ أشفق عليها، حتى أشفقتُ على نفسي، قلتُ: قلبُك حجر يا يمَّا، لكني عرفتُ ما وراء

الحجر، كان شلالًا كامنًا، فيضانًا من وراء السد، والآن حان وقتُ انهيار السد. في اللحظة نفسها شعرتُ بدفعةٍ قويةٍ إلى خارج ذلك الحضن الكبير، قالت أمي بصوتٍ حازمٍ وعينين حاسمتين:

– انسَ ما حدث!

وقامت تُجَهِّزُ العشاء على الموقد الصغير.

أمام الباب جلستُ مُطرِقًا في تفكيرٍ طويل: ما الذي جرى؟ شيءٌ خفيٌّ وراء هذا الذي رأيتُه، أنساه؟ أتذكره؟ أيهما يُعَدُّ عُقوقًا؟ ما الذي فيه عصيانٌ أكثر؟ ما زِلتُ أشمُّ رائحتها في كتفي، أنفاسُها لا تغادرني، كيف أنسى؟ وأحسُّ أنني ما زِلتُ هناك، عالِقًا بين هاتين الذراعين، مضمومًا لأقصى درجة، لا أستطيعُ الإفلات ولا أريدُ الإفلات، لكن تمنيتُ لو أتاحت لي ثانيتين فقط، أنظر فيهما إلى عينيها ثم أعود إلى صدرها، لكن لم تسمح لي إلا بأن أرى عينيها بعدما أخرجتني من حضنها، وهبطتُ من الجنة فوجدتُهما أصلب مما كانتا عليه قبل ذلك العناق الفاصل، الذي يفصل ربما بين زمنين مختلفين، بين مكانين، بين أُمَّين؛ واحدةٍ ذهبت إلى السوق تشتري لي حذاءً ولم تعد، وواحدةٍ

عادت تشبه أمي التي غادرت بالضبط، لكنها لم تأتِ لي بالحذاء، وإنما صفعتني به في تلك الحُرقة الغامضة التي تسلَّلَت من حضنها إلى صدري قبل قليل ولا أعلم ماهيَّتها، لكنها شيءٌ ثقيل، حار، ينتفض، يُبرِق، يصرخ، ثم يصمت ويتبسم، إنه شيءٌ يشبه النار تمامًا.

لم أسأل أمي عن الحذاء، كان عيبًا أن أفعل ذلك ولم أكن لأسامح نفسي. وضعتُ قدميَّ الدقيقتين في كندرتي المُتهالكة، يُطِلُّ طرف إصبعي من البور، وفي الفردة الأخرى تُطِلُّ أصابعي جميعها، وتَكْحتُ بطون أصابعي في الأرض بينما أحاول أن أجعلها لا تلمس الأرض. مضيتُ أدقق في الطريق المبسوطة أمامي لا أعلم عن ماذا أبحث، لَمْ تُنادِني أمي، بقيت كما هي، جالسةً أمام الموقد، ولا أعلم أتطهو الطعام على نارِها أم تارِه، تُقلِّبُ بحركةٍ منتظمةٍ ولا تتوقف، كأنها محراثٌ يقلب التربة دون راحة. تخطيتُ حارَتَنا، وانحدرتُ خارجًا منها قفزًا بين جانبيها، وبينهما العَرضُ الذي يبلغ أوَّلًا على آخِرٍ مِترًا ونصف المتر، أيًّا كان مُسَمَّاه؛ الشارع، الحارة، الزُقاق، المسار، الطُرقَة، تلك المسافة الضيقة التي تفصل بين جانبي المُخيَّمِ المُكتَظِّ

بالغُرَف، المُستَظِلَّةِ بلهيبِ الصاج، الذي يستندُ إلى قوائمَ خشبيةٍ ترقدُ فوق جُدرانٍ من حجارةٍ قديمةٍ تعلوها آثارُ طِلاء.

ومن المخيم، أسير مائة مترٍ للعبور إلى الحاجز الذي على رأس الحي، حيثُ يقف ستة جنودٍ وحنديتان، ويجلسُ ضابطان وتربض ثلاثُ عربات «جيبّ» خلف حاجزٍ حديدي، وأكوامٌ من السلاح فوق ظهورهم وعلى أفخاذهم، وفي جنوبهم، وأخرى في بطونهم وعلى أذرعهم، وطلقاتٌ على صدورهم، أتخيَّلُ رؤوسَها دائمًا مُوَجَّهةً في أحشائهم نحو الداخل، لتحدث معجزة فجأة وتخرق أجسامهم. وبين الضابطين طاولةٌ لا تكاد تتحرك من مكانها منذ سنوات، وفوقها قارورة فاتحة اللون من الفودكا البولندية، هكذا أخبرني حسن، قال لي إن الزجاجات فاتحة اللون من بولندا، يأتي بها الضابط كل صيفٍ من بلاده، وقال إنه رآه ذات يومٍ يُنزل صندوقين كاملين في كُشك الحاجز، أما داكنة اللون فهي من روسيا، تجلبها زوجتُه من بلادِها أيضًا.

فتّشوني، أرفع ذراعيّ غير مُبالٍ؛ يضعون أيديهم تحت ذراعي، حول رقبتي، في شعري، يفتحون فمي، يدورونني بين أيديهم، يفتشونني من الخلف، يلفونني إليهم مجددًا، يضع أحدهم يده بين فَخذيّ، يتحدثون بعِبريةٍ أفهمُ مُعظَمَها، يقول الجنديُّ أشياءً وقحةً وكلماتٍ نابية: «هابين»، يكرر الجندي الكلمةَ ويضحك، مُشيرًا إلى ما بين فخذيّ، كأنهم اكتشفوا شيئًا لم يروه طوال حياتهم.

عبرتُ أخيرًا، أنظر إلى الخلف فأجدهم ما زالوا يضحكون، لم أتأثر، لم أعد صغيرًا. نجمة سُداسية زرقاء وخَطّان أزرقان في أعلامٍ كسولةٍ فوقَ البيوت، تكاد الشمس تُشعِلُها، أعلامٌ في كل مكان، في سَاريةٍ فوق كُلِّ سطح، أعلامٌ طويلة على الواجهات، أعلامٌ على المداخل والأبواب والجُدران، كأنَّ أحدًا يحاول تأكيدَ وجودِه لأنَّه يشعرُ دائمًا بأنَّه مُهَدَّدٌ بالزوال.

أنظرُ إلى تلك الشرفة التي أعرفها جيدًا، ما زِلتُ أتذكرها بكل تفاصيلها، حتى الصدأ الذي على قُضبانِها. تعثرتُ في كيسٍ أسود، كان مفتوحًا وفيه حِذاءٌ على مقاسي، إنَّه لي، لا بُدَّ أنه سقط من أمي أمام ذلك البيت، لا بد أنها وقفت

هنا، وأن ما حدث حدث هنا. من جديد قفزت صورتها في عقلي، شعرتُ بحرارة أنفاسها على كتفي، تحسَّستُ عنقي لأتفقد آثارَ دموعها، ووجدتُّ طيفها واقفًا أمامي، تنظر لي في حزم، تحيط كتفيَّ ببطنِ كفيها الغائرتين. أسألها: ماذا فعلوا بها؟ هل ضايقها أحد منهم؟ أقصد غير المُضايقاتِ التي تحدث كل يوم، التفتيش الذي تشرف عليه جنديتان مُتحرشتان، الشتائم التي تُلقى من خلف أسوار البيوت، الأعلام التي تقف كالنكسة على الشرفات، الحجارة التي تُرمَى قَدَرًا في طريق المارة ويختفي راميها قَدَرًا كذلك، غير هذا كله، هل حدث شيءٌ جديدٌ يُضايق؟ ماذا حدث يا أمي اليوم؟

جلستُ مقابل البيت، أرى طرف الكرسيّ الخشبيّ الهزاز ظاهِرًا من خلف قُضبانِ الباب، أنظر إلى الشرفة بالأعلى؛ واسعة وفسيحة، تشعر بأنها بيتٌ مُضافٌ إلى البيت. يأخذني الصوتُ إلى الأسفل مجددا، في الحديقة خلف الباب الحديديّ للبيت، حيثُ يهتزُّ الكرسيُّ عُنوةً بفعل فاعل، لا يتفاعل مع الهواء كما تعوَّدتُه قبل سنوات. ترتطم به الرياح لكن بسرعةٍ مُنكَسِرةٍ على الأسلاك

الشائكة فوق جدران البيت وأسياخ الباب الحديد، يهتز اهتزازًا خفيفًا كمن يرقص من غير نِفس، ولو كنتُ مكانَه لفعلتُ الشيء نفسه، خصوصًا حين تجلس هذه المرأة القبيحة عليه، بإيشاربٍ قصيرٍ مَقموطٍ على رأسها الذي يستحق السحق برغم شعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين.

تعثَّرتُ بينما أخطو لأتابع السير، كان كيسًا أسودَ يطل منه حذاءٌ أنيق، وضعتُ فيه قدميَّ فكان على مقاسي بالضبط، تأكدتُ أنه الذي اشترته لي أمي، كان ذلك الحذاء الذي يرتديه كل أطفال المخيم، والمقاس الكبير منه يرتديه مُراهِقوه وشبابُه، والأكبر للرجال، ومثله بالضبط مع مقاساتٍ أصغر ولمعةٍ ذهبيةٍ على مُقدمته للفتيات والنساء. كان على بساطته أنيقًا، ويُحدثُ حالةً ساخرةً عجيبة كلما نظر أحدنا إلى قدم الآخر سِرتُ به خطوتين جيئةً وذهابًا، ثم من بعيدٍ رأيتُ الحاجز والجنود والضابطين، وتخيلتُ مصيرَ الحذاء إن فكرتُ في مجرد العبورِ به، شكله الجديد ورائحة الجلد الذي لم يُستعمل بعد وسواده اللافت، كلها علاماتٌ على شيءٍ جديدٍ

يُفرِحُني، وفرحتي بحد ذاتها إشارةٌ للجنود على أن يعكروا مزاجي ويسرقوا الحذاء أمام عينيَّ، وأعود إلى أمي حافيًا.

واقتلني إن استطعتَ ولكن لا تسرق حذائي، لأنني لا أنسى ذلك اليوم حين عُدتُ إلى أمي من غيرِ حذاء، أخبرتُها أن الجنديّ أخذه بينما كنتُ ألعب في الحوش بين المخيم والحي مع الأولاد، سَحَبَت أمي ملعقةً معدنيةً على النار أمام عينيّ ثم كَوَتني بها على قدمي، وقالت لي -بينما كنتُ أصرخ وألعن الأمومة والطفولة والحذاء والجندي-:

– من يسرق اليوم حذاءك يسرق غدًا أرضك.

مساء ذلك اليوم البعيد، ورغم أني كنتُ أعرُج من اللسعة، مشيتُ حافيا، أتأبَّطُ حسن -الأطول مني- كعُكاز، حتى وصلتُ إلى الحاجز، وكان الحذاءُ مكانَه بالقُربِ من الجنود الجالسين يسكرون ويضحكون، تركتُ حسن بعيدًا بعض الشيء، ثم مضيتُ ثابتًا دون عرج، مُتحامِلًا على وجعي، حتى وصلتُ للحذاء، ودون أن أنظر إليهم أو ينظروا إليَّ، وضعتُ فيه قدميَّ، وانصرفت. في الليلةِ ذاتِها، وفوق مكانِ اللسعةِ نَفسِها على قدمي، قَبَّلتني أمي.

هذه المرة، كان عليَّ أن أخبئ الحذاء الجديد، لم أستغرق في التفكير، نظرتُ إلى جانبي فوجدت تلةً صغيرةً بين بيتين، وضعتُه في الكيس جيدًا، ثم مررتُ إلى سَفحِ التلة المُنحَدِرة، نظرتُ حولي، لم يكن أحدٌ يطل من أي شرفة، الشمس القائظة تمنع أيَّ أحدٍ من الخروج الآن، والمرأة القبيحة التي تطل من البيت دخلت قبل دقيقتين، والجنود منشغلون على رأس الشارع.

حفرتُ، ويداي كأيدي القوارض، تحفران بسرعة، وتحفران بعُمق، ثلاثُ دقائق فقط كانت كافيةً لصنع حفرةٍ تبلع حذائي، ونصف دقيقةٍ لإغلاقِها جيدًا، وعشرون ثانية لإتقان العمل، فلا يلحظ أحدٌ ما كان هنا. عدتُّ إلى حذائي المثقوب وإصبعي المتسلل منه، ونصف مشطي الذي يطل من الفردة الأخرى، وأسفل قدمي الذي يكحت في الأرض الملتهبة، لكنني لا أشعر بأي شيءٍ إلا لذةَ الحذاء الجديد، المحفوظ في مكانه السري، الخزانة التي حفرتها اليوم ولا أحد غيري يعلم عنها شيئًا. كان عم أبو ندى يحكي لنا عن «المخزن»، ذلك المكان الذي يخترعونه في السجن ليخبئوا فيه الممنوعات، هذه الممنوعات قد

تكون هاتفًا صغيرًا، أو مرآةً، أو قلمًا وورقة، لا أكثر ولا أقل.
والآن فهمتُه، وأشعر أنني أريد أن أجري لأحكي له عن مخزني أنا أيضًا.

أرفع قامتي أريد معانقة الشمس، أريد إخبارها أنها الوحيدة التي رأتني بينما أحفر وعليها حفظ سري، وإبلاغي إن اقترب من المخزن الجديد أحد، وعليها بدورها كذلك ألّا تخبر أحدًا، عدا أمي.

ONE PIECE
BOOKS

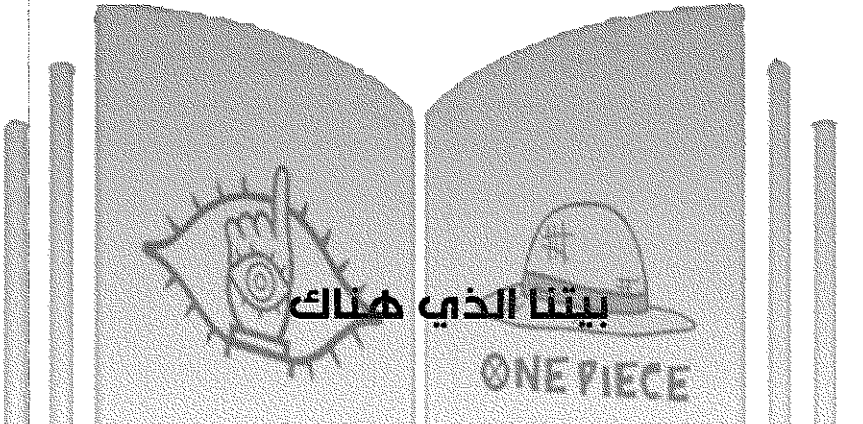

بيتنا الذي هناك

أمرُّ من الحاجز قاصِدًا المُخيَّم، وتبدو لي المسافةُ أكبر من مجرد مسافة. هي هُوَّة سحيقة بين عالمين، عالمين لنا، أحدهما الذي كان، والآخر هو الأمر الواقع. أخرجونا من العالم الذي كان، الذي بُني على مهلٍ وامتلأ منذ مئات السنين بالأشجار والطين اللَبِن، وامتلأ منذ عشرات السنين بالبيوت والنفوس والذكريات، وامتلأ كل يومٍ بالرسمات والصور، بالورود والحدائق والأشجار، برائحة الأجداد وأُنسِ ضحكاتهم وبطء أنفاسهم الأخيرة، بصورهم الأبيض وأسود إلى جوار صورنا التي بالألوان،

بضجيج الأطفال وصوت الطَشَّة، بأحضان القادمين من بعيد ووداعات المغادرين إلى بعيد.

وعالمٍ آخر، دفعونا إليه بكعوب البنادق ورؤوس الصواعق، حين أحرقوا كل شيءٍ في ذلك القديم وعاشوا في رماده يتلذَّذون بالموت كالمخدرات، لا يشعرون بأية مشكلةٍ بينما يعيشون فيه ويعيش فيهم، يضحكون ويأكلون ويشربون، ولا تؤرقهم الأماكن التي كانت مليئةً بالصور القديمة، والعجيب أنهم لم ينسفوا إطارات الصور القديمة ليأتوا بالجديدة التي تمحو آثار ما سبقها، وإنما أحرقوا صور أصحاب البيت، واحتفظوا بالبراويز ليضعوا فيها صورهم.

يحاولون عَبَثًا تبديل الحقائق، أن يقولوا إنهم لم يسرقوا هذه الأماكن بما فيها، وإنما هم الذين كانوا هنا قبلنا ونحن مَن سرقناهم، الذي يؤمن بالتفاصيل ويعرف الحق ولو من ألف ميل، سيعلم جيدًا أعمارَ البراويز، ويشمُّ رائحة الصور المُمَزَّقة، ويتعرف بسهولةٍ على أعمار الصور المُزيفة الحديثة.

يحاولون إحراق خوفهم من صور الماضي، ولا يُفلحون، يبقى ذلك حيًّا في خيالهم الخائف، تستقر الصور في عقلهم الباطن رغم محاولات طردها، فإنهم يوم أحرقوا صور الكبار أوقدوا الثأر في قلوب الصغار، وأشعلوا فيهم جذوة الحياة، فسكنوا حولهم، يحاصرونهم من كل اتجاه. ولذا سترى هذه الأعلام في كل مكان، فوق كل بيتٍ وعند كل جدار، كأنهم يُخفون أشباحًا يرونها وحدهم، وما زالوا كلما استيقظوا من النوم -إن ناموا- يتفقدون الأعلام وأن أحدًا من أصحاب البيت الأصليين لم يمزقها. ويختبئ خوفهم من أجدادنا خلف خوفهم الأكبر منا، ونحن صور الحاضر التي لا يحاصرها برواز، وحقائق المستقبل التي لا تحترق، ونحن تلك الصور الحية التي تجري أمامَهم ليلَ نهار. ومهما بدا مواليدُ اليوم صِغَارًا بجوار الحواجز، ضئيلين بين العربات المُصَفَّحة، يرونهم عمالقةً؛ ولذلك ستجدهم لا ينظرون إلينا في الأسفل أبدًا، وإنما يحاولون النظر للأعلى ليرونا، وأمامهم دروعهم لأنهم يخشوننا، ولا يعرفون كيف يتخلصون من لعنة الحياة التي تتجدَّدُ على أيديهم.

فمن يستطيع قتل كل الأطفال؟ أعدادهم أكبر من أعداد الطلقات، ولو كانت أعداد الطلقات تكفيهم حتى، فإن القاتل حين يُفرغُ خزنته تمامًا، ويصوّب آخر طلقةٍ في صدر آخر طفل، ويضحك ما يظنها ضحكة المُنتَصِر سيُفاجَأ بصوتٍ يذبح نشوته ويقطع غروره، يقول: «واء واء»؛ إنه مولودٌ جديد.

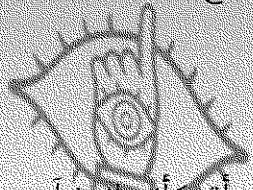

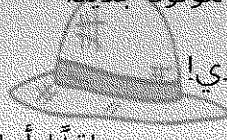

ـ فادي!

وجدتُ حسن واقفًا أمامي فجأة، كأنه انتشلني من ذروة تفكيري، ولا أعرف كيف مررت، كيف عبرتُ الحاجز من فتشني من الجنود، ولا ماذا قالوا؛ كنتُ في وادٍ آخر تمامًا.

ـ أمك سألتني عنك، أين كنت؟

ـ كنتُ في الحي.

ـ لماذا؟

رمَقني حسن بنظرةٍ فاحِصةٍ يملؤها الشك.

قُلت:

ـ اشترت لي أمي حذاءً جديدًا اليوم.

ينظر إلى قدمي مُنتَظِرًا أن أُكمِلَ حديثي، وينتظر دليلًا على ذلك الحذاء الجديد.

ـ خبأته هناك، في التلة التي مقابل البيت.

لم يُكذِّب حديثي ولم يُصدقه، وانتقل إلى موضوعٍ آخر.

ـ أمك لم تبدُ بخيرٍ حين سألتني عنك، ماذا حدث؟

ـ لا أعرف، لكن وجدتُ الحذاء وخبأته، سأريك المكان بالضبط حين نمر من هناك.

ـ اذهب وطمئن أمك ثم نلتقي بعدها.

***

طويلُ الوجه، أسمرُ البشرة كأنه من طينِ الأرض، بين فمه وأنفه بوادرُ رجولة: شَعراتٌ قصيرةٌ صغيرة، وصوتٌ أجَشٌّ من حنجرته الكبيرة، البادية في رَقَبته الهارِبَةِ من جسمه النحيل، وشعرُه البنيُّ الناعم هو الاستثناء الوحيد من قانونِ الخشونة العام الذي يشملنا.

حين فتحتُ عيني على الدنيا لأول مرة عرفتُ حسن، تتركه أمه عندنا في البيت وتذهب لتبيع التين في السوق، ونلعب أنا وهو في حديقة البيت، نحفر ونزرع ونحصد في

اليوم الواحد أكثر من مرة. كبرنا وصارت لعبتنا الجندي والمقاوم، لطالما كنتُ المقاوم، وكان هو الجنديّ بسبب طولِه، يتفنن في محاولة استفزازي وأتفنن في مقاومته، وكان كل مرةٍ يسقط فيها على الأرض يضحك، برغم هزيمته في اللعب، ويقول: «يا ويله مَن يقفُ في وجهِك يومًا يا فادي!».

كبرنا أكثر، طَوّرنا لعبة الجندي والمقاوم؛ فصِرنا مُقاوِمَين، وأدخلنا لاعِبًا ثالِثًا معنا، كان جنديًّا حقيقيًّا تمامًا، يتصرف بجديةٍ بينما لا نراه إلا لعبةً، يتغيَّرُ كل مرةٍ، لكن لا نبالي ما دام بالزيِّ نَفسِه، مُدَجَّجًا بالسلاح، يرمي قنابل الصوت وقنابل الغاز، والرصاص المطاطي، والخرطوش، وكل ما بجُعبته، ومعه كثيرون يشبهونه، وفي كل مرةٍ -وإن أصابونا- نهزمهم، نمضي مُنتَصِرَين، ويمضون يجرجرون هزيمتهم.

وكنا نُعِدُّ للعبة قبلها بليلة، ترمقنا أمي من نافذة المطبخ المُطِلَّةِ على الجزء الخلفيّ من الحديقةِ بينما نعبئ الزجاجات ونشدُّ المقاليع، وتكون ليلة الجمعة كالعادة، الكبار في البيت، تقف أم حسن مع أمي في المطبخ، تتحدثان دون انقطاع، وأبي وعَمّي أبو حسن في الصالة،

يأكلان البذر ويتحدثان حول آخر الأخبار كأنّهما يدرسانها، يتفحص كل منهما الجريدة التي بين يديه ويحكي كُلَّ ما فيها. يتناقشان ويحللان ويتوقعان، يحولان البيت إلى صالونٍ سياسيٍّ وأستوديو تحليلي، يختلفان ويتفقان؛ كلامٌ عن الثورة والانتفاضة، والمسلحين والجبهة، والحركة والكتائب، والشباب والزلام، وجماعة أبي فُلان، وجماعة أبي عِلّان، والعملية الأخيرة، والعملية القادمة، ومصطلحات أخرى يقولانها كلها كأنها شفرات مُتعارَف عليها بينهما فقط، لا نفهم إلا قليلًا منها بينما نُخمن الباقي.

في الحديقة الخلفية نفرغ جِوالَينِ من زُجاجاتِ الكازوزة التي جمعناها على مدار الأسبوع؛ من الدكاكين، من بيوت الأعراس، من القمامة. ينظف حسن الزجاجة جيدًا، يُعبئ البنزين، أتسَلَّمُها منه، أضع فيها ملعقةً من السكر وكُراتٍ صغيرةً من الفِلّين، أعطي الزجاجة جيدًا وأربط شريط القماش على فمها، وأضعها في الصندوق. أخبرنا أبي أن السكر والفلين يُبقيان الشعلة فترةً أطول، ويُمَدِّدَانِ نارَها أكبر. نظل هكذا حتى يؤذن الفجر، يكون أبو حسن وأم حسن قد عادا إلى بيتهما منذ ثلاث ساعات، وأمي غَطَّت في نومٍ عميق، ويستيقظُ أبي، ونصلي الفجر جماعةً، يبقى

هو مستيقظا ساعةً بينما نكون أنا وحسن قد خلدنا إلى النوم، حتى توقظنا أمي بصعوبةٍ قبل الجمعة بساعتين، نُفطر على عَجَل ونخرج إلى نقطة التماس.

في كل أسبوعٍ منذ فتحنا عيوننا على الدنيا تفوتنا الجمعة في الأقصى، وفي غير الأقصى، نصطَفُّ ونصلي مكانَنا، لكن لا تفوتنا محاولات العبور. لم يُصَلِّ أحدٌ من أهل الحيِّ ولا البلدة هناك منذ سنواتٍ لا يذكرون عددها، ولا من المخيمات والبلداتِ المُجاورة، لكنهم طوال هذه السنوات كانوا يحاولون. مات بعضهم وهو يحاول، وعاش البعض الآخر وهو يحاول، ونحن لم نرث منهم الوصول بقَدرِ ما ورثنا منهم المحاولة.

ننطلق ومعنا صناديق المولوتوف، يمر علينا أصدقاء، صحيح أننا ربما نتعرف عليهم لأول مرة، لكنهم ما داموا سيقطعون الطريق نفسها إلى الجدار العازل فهم أصدقاؤنا، وينادي كُلٌّ منا الآخر بـ «يا أخوي». يحملون معنا الصناديق على سيارةٍ صغيرة، تسير بنا في طُرُقٍ ملتويةٍ لعدة كيلومتراتٍ قليلة، ثم تضطر العربةُ للمغادرة حتى لا تُلاحَق، ونحمل نحن الصناديق قاطعين عدة كيلومتراتٍ أخرى سيرًا على

الأقدام. نصلُ بالقرب من الجدار، نراه واقفًا أمامنا يضع ذراعيه في جنبيه ويقول: لن تمروا، ونقول له: سنمرّ، يعاندنا أكثر، يقول: إنَّني مُمتَدٌّ في بطنِ هذه الأرض من قبل أن تُولَدوا، نضحك ساخرين منه ونقول: عُمرُ أحدَثِ أشجارِنا أطولُ مِنك، وعُمر أصغَرِ شجرة زيتونٍ في الحيِّ أطولُ من عمر أكذوبتك التي لن تدوم. ومن هنا تبدأ «العركة» الأسبوعية بأول زجاجة مولوتوف نحو الحاجز، أو نحو ناقلةِ جنودٍ أو مُصَفَّحةٍ أو دبابةٍ تفصلنا عنه عشرات الأمتار، وتشتعل اللعبة؛ كلنا نقوم بدور المقاوم، وكلهم يقومون بدورهم الطبيعي: الجنديُّ المحتل، نرميهم بشرر، ونرجمهم بالحجارة كأننا نؤدي رمي الجمرات، لكن على حدود القدس وليس مكة، وما القدس عند الله إلا كمكّة، نقول: لبيك اللهم لبيك، الله أكبر، وندع المقلاعَ يقول كلمته، يمطروننا بالغاز والرصاص، ونُمطِرُهم بحجارةٍ من سجيل، وكنا -بلا جهدٍ منا- نصيبهم، وكانوا -بلا جهدٍ منا- يُخطئوننا.

كانت هذه لعبتنا المفضلة، وكان حَسَنُ أمهَرَنا فيها، لم يُخطئ هدفه مرةً من قبل، سواءً كان بالزجاجات الحارقة،

أو بالمقلاع، ولأننا نتخذ أسماء مُستعارةً في أيام الجمَع، كان حسن (القناص).

***

ـ أين كنتَ يا فادي؟

صَحوتُ من خيالي على مدخل البيت.

ـ في الحي يَمّا، طمئنيني عليكِ، بخير الآن؟

ـ الحمد لله، ماذا كُنتَ تفعل هناك؟

ـ أقيسُ الحذاءَ الجديد، سلمت يداكِ.

دغدغتُها في جنبها حتى ضَحِكَت، قَبلتُ يدها، وابتسَمت بهدوء، ولم تقل شيئًا، وجلستُ على الطبلية التي كانت قد امتلأت للتوِّ بأصنافِ الطعام، ولا أعلم متى ولا كيف طبخت أمي كل هذا.

***

أم حسن أيضًا كانت طباخة ماهرة، ست بيت كما قال الكتاب، تطبخ هي وأمي معًا فنكونُ في حضرةِ وليمةِ عُرسٍ مهما كان اليومُ عاديًّا وبلا أية مناسبات، تذهب إليها أمي آخر النهار في السوق، تشتريان للبيتين ما يلزمهما،

أو بيتٍ واحد يفصل بين جُزئيه عرضُ الشارع، تَحمِلان أصنافًا وألوانًا من الخُضَار والفاكهة، واللحم أو الدجاج، أو السمك، ثم تعودان معًا. ولا أنسى ذلك اليوم قبل ست سنوات، حين أتت أمي من دونها.

قالوا إن أم حسن كانت تحمل في الوعاء الذي على رأسها مُتفجرات، أمروها بأن تُنزله، وكانت مريضةً ذلك اليوم، فسقط الوعاء منها دون قصد، ومع صوت سقوطه على الأرض دوت تسعُ رصاصاتٍ مُتتابعة في فضاء السوق، وسقطت أم حسن وبجوارها حبّاتُ التين تلوّنت الأرض بالأحمر القاني، بعصير التين المهروس، ودماء أم حسن التي استُشهِدَت للتو.

قالت أمي إنها لم تجدها في السوق، بكى حسن وقال: «أمي ضاعت»، ضَحِكنا جميعًا على نُكتَتِه، قاطعتنا أمي، اصطحبت أبي إلى الداخل، وبعد دقيقتين عاد إلينا ووجهه مخطوف، أخذت أمي حسن إلى المطبخ، وأخذني أبي إلى الصالة، قال لي:

ـ من البداية وحسن لم يكن صديقك، كان أخاك، واليوم صار ابني مثلك وزيادة، وصار ابنًا لأمك،

وأخاك الأكبر، لا تَعصِ له أمرًا ولا تقل إلا حاضر ونعم، ولتكن في ظِلِّه أينما سار، خالتك أم حسن سبقتنا للجنة، ومن اليوم حسن معنا إلى أن نُسَلِّمَه إليها هناك.

لقائي بحسن، الذي تَلى هذه اللحظات، لا أنساه أبدًا، كل شيءٍ تغيَّر، التقيتُ بشخصٍ آخر غير الذي دخل مع أمي إلى المطبخ قبل دقائق، كأنه شبحٌ عائدٌ من عاصفة، من كارثةٍ إنسانية، عيناه مُعَتَّمَتان بحُمرةٍ طاغية، وشعره البني كأنه يشتعل شيبًا، ولسانه المُكَبَّلُ في فمه يخنق حلقه، وعروقه البارزة على جدران رقبته على وشك الانفجار، صامتٌ لا يقول أيَّ شيء، يتفادى النظر إلي، يضع اللقمة في فمه تلو اللقمة، أُمسِكُ بلقمتي ولا أفعل بها شيئًا، وإنما أسترق النظر إلى رحلة لقمته الوعرة في فمه، يزدردها دون أن تطحنها ضروسه، تنزل كاملةً إلى جوفه، كأنه تخلص منها، ويضع بعدها التالية، واحدةً تلو الأخرى، يسرع شيئًا فشيئًا، أنظر إليه في استغرابٍ ولا ينظر إلي، يركز في الطبق الذي أمامه. وفجأةً ترك كل شيء وابتعد خطوةً إلى الوراء وهو جالس، وأطرق رأسه بين قدميه، وبدأ يصرخ صُراخًا مكتومًا ومكلومًا:

ـ يمممممممما!... يمممممممما!... يمممممممما!

ذهلت أمي، ضمته إلى حضنها بقوةٍ وهي تبكي، تقول:

ـ نعم يَمَّا نعم يما، أنا معك يما، أنا بجوارك، شد حيلك يما، شد حيلك.

وعيناها تذرفان دموعًا غزيرةً دون صوت، دون صراخ، دون انهيار، فقط تغمض عينيها، وتقول ما تقول، وتحضن حسن أكثر، ويبكي حسن أكثر، وأبي ليس في الصالة؛ خرج ولم أرَه. وأسمعُ أنينًا خشنًا، أنينَ رَجُلٍ لأول مرةٍ في حياتي، وبعد ثوانٍ سمعتُ طرقاتٍ على الباب، وصار الأنين أنينَين. كان الطارقُ أبا حسن.

بيتي يا ولاد الكلب!

كانت قد مرت السنوية الأولى لاستشهاد أم حسن -والمظاهرات التي اشتعلت من أجلها شهرًا كاملًا عند الحاجز- حين وجدنا كتيبةً كاملةً من مدرعات ومصفحات وسيارات جيبّ وناقلات جُندٍ وحواجز حديدية وجنود وضباط، كلها في حَيّنا الصغير، تُطوِّقُ شارعنا، وتمتدُّ فيه، وتتمدد بلا انتهاء، قوةٌ تكفي لاحتلال مدينةٍ بالكامل، وضباط يحملون رُتَبًا عالية في الجيش، حتى إن أحدهم -كما قال لي حسن- رئيس أركان. ووقفت خوذات المهندسين بجوار خوذات العسكريين، وتحتها رؤوسٌ تتلفَّت يمنةً ويسرة إلى بيوتنا، يشير أحدهم كأنه يعدُّها،

والآخرون من حوله ينظرون، يتمتمون فيما بينهم، وأهل الشارع جميعًا في شرفات المنازل، والبعض أمام الأبواب، تسري الأحداث مُسرعةً، يقول البعض إنهم جاؤوا ليغلقوا الحيَّ على سُكَّانِه، فلا يخرج أحدٌ ولا يدخل إلا بإذن.

- يريدون أن يجعلوا الحيَّ مثل سجن عوفَر، الأرض أرضنا والحديد حديدهم.
- يلعن أباهم لأبي عوفر، والله على جثتي.
- سمعتُ الجنود يتحدثون بالعِبرية، لم أفهم منها إلا كلمة (العائلات).
- مفهوم إذن، يريدون أن يمنعوا زيارة العائلات من خارج المخيم إلى العائلات هنا، والعكس، يظنوننا مقطوعين من شجرةٍ مثلهم!
- شجرة؟ شجرة الزقوم يا أخوي.

كانت الفترة من العصر إلى العِشاء مليئةً بالتكهنات، توقعات وشائعات لا أولَ لها من آخر، وقلوب قَلِقة ولو تظاهر أصحابُها بالثبات، ومئات لا يعرفون مصيرَهم في اليوم التالي، ولا كيف سيكون الصباح.

بدأ الصباح مُبَكِّرًا، لأن أحدًا لم ينَم، حتى الذين ناموا استيقظوا على صوت الحافلات، وضجيجٍ مُرتَفِعٍ بالعبرية، أصوات مختلطة بين الصغار والكبار، الذكور والنساء، يسيرون جماعةً، ذكورهم كخرافٍ بيضاء ونساؤهم غِربان سود، ينظرون كنظرات الجنود في اليوم السابق، إلى البيوت، بعضهم يقف قليلًا في وسط الشارع أمام بيتٍ معين، والبعض الآخر أمام بيتٍ غيره، وهكذا، كان الواقفُ بالقرب من بيتنا الضابط البولنديُّ ومعه زوجته التي كنا يومَها نراها لأول مرة، يبدو من ردائها القصير وشَعرِها المسدول على كتفيها أنها ليست من المتشددين اليهود، لكنها على كل حالٍ مستوطِنة سارقة، أينما كان المكان الذي أتت منه، وأينما كان المكان الذي تعيش فيه، ما دام فوق أرضِنا.

قلنا هي رحلة سياحية ربما، أرادوا تأمينها بهذه القوة الضخمة، لأن من بين الزوار ضُبَّاط ورئيس أركان وناس مهمة عندهم، ولأن حيَّنا هو الوحيد في هذه المنطقة الذي نجا من الـ 48 والـ 67 وما بعدهما، وظل مُحتَفِظًا -رغم محاولاتهم- برونقه، وطابعه الأثريِّ القديم، حيث البيوت من «حَجَر القدس»، مُنوعةً جُدرانُه وواجهاته بين الحجر

الأحمر والذهبي والأصفر والأبيض، والأقواس في المداخل، والحدائق بين أسوار المنازل ومبانيها.

في اليوم الثالث جاءنا الخبر على أيدي الجنود الذين يطرقون بقبضاتهم أبوابنا، سلَّموا كُلَّ بيتٍ إخطارًا بالعِبرية والعربية، مكتوبٌ فيه الاسم الرباعي لصاحب البيت وعدد أفراد الأسرة، وبالخط العريض على أول الورقة: «طـلـب إخـلاء»، ومهلة 24 ساعة. لم نستوعب الأمر في البداية، لم نفهم الإخطارات، شككنا في معرفتنا باللغة العِبرية، وفي مدى فهم المُوَظَّفِ الذي ترجمَ الإخطارات إلى اللغة العربية، قُلنا ربما يطلبون إخلاءً للتفتيش عن السلاح كعادتهم كل عدة أشهر، أو إخلاءً مُؤقَّتًا لساعةٍ لأنهم يبحثون عن «مُخَرِّبٍ» كما ينادون المقاومين الذين ينفذون العمليات، لكن الضابط البولندي الذي ينظر إليَّ من بعيد وبجواره امرأته القبيحة، يُدَخِّنُ سيجارًا، ويُطيل النظر إليَّ بوقاحةٍ، ويقول: «يَلَّا يَلَّا»، كان يؤكدُ لي أن الأمر كما قالوا، وكما فهمنا، وكما كتبَه المترجم.

ظللنا طوال اليوم نفكر، ولا نعلم ماذا نفعل، كل الناس في الحيِّ مثلنا، فَكَّروا، لكن لم يفعلوا شيئًا، تُعِدُّ الأمهات طعام اليوم وتضع بقيته في الثلاجة لنأكله على الغداء غدًا،

ونسألُهنَّ عن حاجاتِنا المتعددة فتقول كل واحدةٍ منهن لابنها: «غَدًا أحضرها لك من السوق بإذن الله»، وأسأل أبي ويجيبُني: «غَدًا»، كان الجميع مُتَّفِقين دون ترتيبٍ مُسبَقٍ على أنَّ «غَدًا» يومٌ عاديٌّ كَكُلِّ يوم لن يكونَ إلا يومًا عاديًّا. جلستُ أنا وحسن في الحديقة نفكر في اليوم التالي، وأبو حسن في بيته بعد ليلةٍ قضاها معنا، وأسألُ صديقي -الذي صار قبل سنةٍ من الآن أخي الأكبر- عما سيفعلونَه غَدًا، يقول لي إنهم يريدون تهجيرنا من البيوت، وإن من يحومون في الشارع منذ أيام هم السُكَّانُ الجُدُد، الذين قدموا من أوروبا للتو، وبعضهم من أفريقيا وآسيا، لكنهم يُسكنونهم أحياءً أُخرى، وفجأةً صارت في أياديهم «صُكوكُ مِلكيَّةٍ» تعودُ لعشراتِ السنين، يَدَّعون بها أن هذه البيوت -التي بناها أجدادُ أجدادِنا- لهم.

أصمت ويصمت، أراهن أنه يسرح الآن في صورة أمه، في: ماذا لو كانت هنا الآن؟ كيف كانت ستستقبل الخبر؟ كانت ستقوم إلى المطبخ، تشعل الموقد، وتعد أصنافًا وألوانًا من الطعام، هكذا كانت تعبر عن رأيها في كل شيء، بطبخةِ دوالي أو مسخّن أو منسف، أو المقلوبة التي تخصص لها يومَ الجمعة، كانت رائحة هذه الأطباق

وبخارها الدافئ ردها على أي تهديد، ها نحن نأكل، لأننا سنعيش، وتُتبعها بـ «يا ولاد التَشلب!»، بلهجتها الريفية، تقصد «الكلب».

أما أنا فكنتُ مُنصرِفًا إلى ذلك الرجل الجالس في مدخل البيت وراء الباب الحديد، على الكرسيّ الهزاز، يتأرجَحُ به وكأنَّما هو ثابتٌ فوقه، يأخذه الموج لأعلى وأسفل، بينما يرقد هو خفيفًا كالريشة مكانه، يُفكِّر ويفكِّر، وأرى أمي تخرج إليه بفنجانِ قهوةٍ واحدًا تلو الآخر تتحدث معه، وهو مُنصِتٌ فقط، يرى الحواجز على مرمى بَصَرِه، ويسمع ثُغاء الجنود، ويغلب كُلَّ ذلك عنده صوتُ أمي، القادم من ورائه بينما تقف تُعِدُّ له القهوةَ فوق موقدٍ صغيرٍ، أو القادم من الكرسيّ المجاور بينما يرتشفان قهوتَهما معًا كما تعوَّدا، كان قليلَ الضحك في تلك الليلة، كثيرَ الصمت، يفكِّر بالغد؟ يفَكِّر بالكُرسيّ الذي كان يجلس عليه أبوه في المكان نَفسِه ذاتَ يوم؟ يفكر بأبيه الذي استُشهد مع مجموعةٍ فدائيين قبل نحو عشرين سنة؟ في ماذا تفكر يابا؟

كان جدي ورفاقه يُعِدُّون الكمائن للدبابات ويعيشون في الجبل، حتى ذلك اليوم الذي حُوصِروا فيه عشر ساعاتٍ

إلى أن استُشهِدوا جميعًا، آخرهم كان جدي، الذي اعتقلوا جثته، وما زالت مسجونةً حتى اليوم، بعدما استخرجوا منها ستًّا وعشرين رصاصة.

هل يفكر أبي بمصير البيت؟ بالإخلاء؟ أيُّ إخلاءٍ هذا؟ لم يحرك أحدٌ طاولةً من مكانها، لم تجمع الأمهات سراويل أبنائهن حتى، استسلامٌ للواقع؟ أم تحدٍّ له؟ أم عدم اعترافٍ به كأنهم لا يرونه؟ يقول أبي إن الذي جعل هذه البلاد تقاوم حتى اليوم أن فيها قومًا لا يرون إلا ما يريدون؛ يعرفون أن الأقصى على بُعدِ أميالٍ فيخرُجُون إليه كُلَّ جمعة، يقف أمامهم الجنودُ فلا يرونهم إلا حين يشعرون بوخزات الرصاص في أجسادهم، وحينها يميلون نحو الأرض التي خُلِقُوا منها، يلتقطون حَجَرًا، يقذفونه، ليُكمِلوا طريقهم، كمَن يهشُّ كلبًا يسد عرض الشارع. ويعرفون أن الأرض لهم، فيقفون عليها كالأشجار، يغرسون فيها أقدامَهم كالجذور، ويفردون أجسامهم كالجذوع، ويفتحون أذرعهم كالفروع، ولا يرون من يحاول اقتلاعهم إلا حين يُحِسُّونَ بسِنِّ الجرافة في أصابِعِهم، يهرشون في أقدامهم، يحكُّون أصابعهم في الأرض، فيزدادون صلابةً، لينكسر سلاحُ

الجرافة، ولا ينكسرون. إن الطريقة الوحيدة لتبقى حُرًّا هي ألَّا تَرى إلا ما تريده، حتى يصيرَ ما أردتَّه هو المرئي.

طال الليل حتى جاء الصباح، ووقفت الغربان تنعقُ فوقَ الدُّور واستيقظ النيامُ على صوتِ الجَلَبة التي في الخارج، واجتمع الجنود خلف دروعهم يقفزون في حركاتٍ لا تعلم أهي استعراضية أم تدريبية، والحافلات مُجَدَّدًا، ووراء الحافلات عرباتُ نقلٍ كبيرة، عرفنا بعد دقائق أنها تحمل أثاثًا؛ مراتب ووسائد، وكراسي، وحقائب سفر مختلفة الأحجام والأشكال والموديلات، حتى إن بعضها مكتوبٌ عليه الأسماء بأبجدياتٍ مختلفة؛ الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، وأسماء من حروف ليست لاتينية؛ الروسية والجورجية، وغيرها من لغاتٍ تبدو غريبةً في الرسم والشكل.

وقف الضابط البولنديُّ أمام بابنا، نظر إلى أبي الجالس منذ الليلة الماضية على الكرسيِّ الهَزَّاز في المدخل وصاح بالعِبرية:

ـ لماذا لم تجمعوا أغراضكم؟

برغم أن أبي كان يُجِيدُ العِبرية، فإنه صاحَ فيه هو الآخر، وقال:

ـ كلمني عربي!

ظَلَّ يكرر حديثَه إلى أن يئس من استجابة أبي، الذي يعرف الضابطُ جيدًا إجادَتَه للعِبرية، لكنَّ الضابِطَ رغم أنفِه أتى بالمُتَرجِم، كرر المُتَرجِمُ الجُملةَ، فردَّ عليه أبي:

ـ بل اسأله هو لماذا لا يجمع أغراضه ويرحل إلى بولندا؟

ضحك أبي، بينما ردَّ الضابط بحديثٍ طويل، وقبل أن يكرر المترجم ما قاله، أتبع أبي ضَحِكَه بشتيمةٍ في وجه الضابط لم أسمعها منه طوال حياتي، استشاط الضابطُ غَضَبًا أمام الباب الحديدي، بينما تمتلئ عيناه بالشَرِّ واللهب، وخلف الباب إلى الداخل، يُكمِلُ أبي فنجانه كأنه لا يرى أحدًا غير صورته في عيني أمي، وعلى وجه أمي علاماتُ القلق، تسألني عن حسن، أريد أن أذهب فأتفقده، لكن عساه الآن مع أبيه، وأمام بيتِهما خِنزيرٌ آخرُ لفظته إحدى حظائر أوروبا، ليأتي إلى أرضِنا تكفيرًا عن

ذنوب الأوروبيين تِجاهَهم، هم يشربون دماءهم ويريدون منا أن ندفع حساب المشاريب.

غاب الضابط دقيقةً ثم عاد مُدَجَّجًا بالجنود، يسير بينهم، وتتقدمهم جميعًا أسلحتهم ودروعهم، وقفوا يتقافَزون، ويصيح قائدهم، فيشدون أجزاء بنادقهم، يضحك أبي ويكمل فنجانه، ولا يتحرك من مكانه قيد أنملة، حتى ضربوا الباب، فهَبَّ كأنَّه عاد للحياةِ من جديد، لأوَّلِ مرةٍ منذ ليلة أمس، وقف خلف الباب، يدفعونه ويدفعهم، لم أجد نفسي إلا بجواره، أدفع معه، وبجواري أمي، يدفعون مرةً وندفع مرةً، تتزلزَلُ الأرض، ويهتزُّ الحديد، ويجتمعُ أهلُ الشارع ورؤوسهم تتفلَّت من بين أكتافِ الجنود الذين شَكَّلوا طوقًا حول البيت، يمنعون أيَّ أحدٍ من الاقتراب، والضابط يقول:

ـ اخرجوا من بيتي!

يدفع أبي الباب ويقول:

ـ بيتُ مَنْ يا ولاد الكلب!

إلى أن ابتعدوا قليلًا، ونحن كما نحن خلف الباب، ثم اندفعت من خلفهم قوةٌ أكبر، وجرافةٌ خَلَعَت الباب من

مكانه، ودخل الضابط، وأمي تمسك في ذراع أبي، وأبي يضحك، وأشعر بخفقات قلب أمي أعلى من ضحك أبي وزعيق الضابط، ويشير الضابط إلى جنوده، لكنهم لا يتقدمون، يجلس أبي على الكرسيِّ ويهتزُّ به، بينما يتراجع الجنود، وتمسك أمي بذراع أبي، لا أظنني سَمِعتُها أبدًا تقول له هيا نخرج، وإنما كانت صامتةً، تتمتم بكلماتٍ أحسبها تذكر الله، ويضحك أبي أكثر، ويقول: «بيتي يا ولاد الكلب»، اقترب الضابط مني، مال إلى جواري قليلًا، مَدَّ يدَه إليَّ بقطعةِ حَلوى، لعنتُه في سِرِّي، ولم أمدد يدي، حينها انتفض أبي من الكرسيِّ ودفع مؤخرة الضابط بقدمه فغاص بوجهِه في الوحل، وحينها، في هذه اللحظة، حين التفتَ الضابط، كان أبي على الكُرسيِّ، يهتز، ويضحك، ويقول: «ابني يا ولاد الكلب!»، وتصرخ الطلقات في صدره، ويقول: «بيتي... بيتي... يا ولاد الكلب!»، وما زالت الرصاصات تنطلق من المسدس، وأبي يبتسم، يرفع سبابته كأنه لا يراهم، يتردَّدُ في أذنيَّ صدى حِكمَتِه: «إن الطريقةَ الوحيدة لتبقى حُرًّا هي ألَّا تَرى إلا ما تريده، حتى يصيرَ ما أردتَّه هو المرئي.»، يهتزُّ فوق الكرسيِّ، يسبحُ في دمائه، يدوي الرصاص في صدره، يتمسَّكُ بالكُرسيِّ،

بينما تتأرجَحُ جُثَّتُه، ويقول: «يا ولاد الكلب!»، حتى نفدت الطلقات، وأبي غارقٌ في دمه، لكن ما زالت شفتاه تتحركان، والضابطُ واجمٌ لا يتحرك، ووجهه غارقٌ في الطين، والكرسيُّ، رغم ذلك كله، كان ما زال يهتزّ.

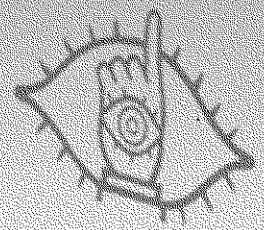

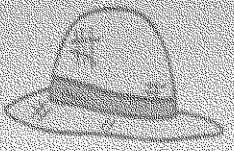

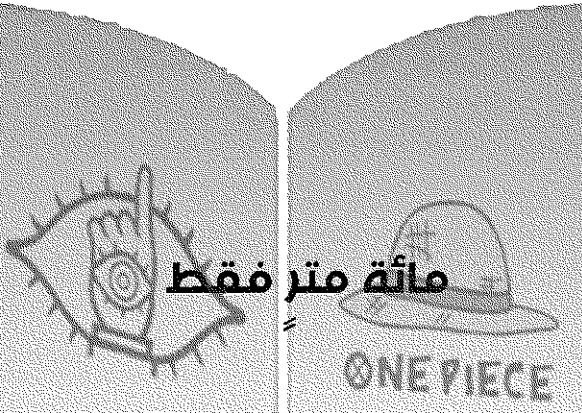

مائة مترٍ فقط

مائة مترٍ هي المسافة الفاصلة بين الشارع والمُخيَّم، لم يعد في الحيِّ أحدٌ منا، أحضَروا لنا خِيامًا، وجاءت القنوات تنقل الحدث: «إسرائيل تُنشئ مُخيَّمًا لفلسطينيين بلا مأوى»، والذين أمام الشاشات يرون جُنديًّا يبتسم، وسكانَ خيامٍ واجمين، يرونَ جيشًا حَنونًا، وشَعبًا لا يُعجِبُه العَجَب، ويُحِبُّ النَكَدَ مثل عيونه، لا يشكر الضُبَّاطَ على لُطفهم البالغ، ولا يمتنُّ لتلك الحماية التي توفرها الحواجز، إنها نقاطُ أمنٍ بين المكانين، لتحمي كُلًّا منهما. لم يرَ أحدٌ غير سُكَّانِ الشارعِ أبي وهو غارقٌ في دمائه، ولم يسمع طلقات المسدس غير الواقفين حينها، ولم يخرج

أبي من بيته، ولم يرضَ بأن يرى إلا ما يريده، فصعدت روحه قبل أن يصعد الضابط البولنديُّ وزوجتُه الدَرَج. في اليوم التالي كان زفافُهما، لم يتغير في البيت أي شيء، وتغير فيه كل شيء، كانت حجارته كما هي، وطلاؤه لم يتغير، غير أن عَلَمًا إسرائيليًّا صار يعتليه ولا يُرَفرِف، بأبى أن يرفرف، لا بُدَّ أنَّ هذه الأعلام من قماشنا، أيُّ شيءٍ في فلسطين لا يخون، لا الحجر ولا الشجر، ولا القماش، ولا المسوحات، ولا الأواني، كُلُّ شيءٍ وفيٌّ لنا، سرقوا القماش الأبيض وطبعوا عليه أكذوبتهم، لكنها لا تنطلي على الهواء، فيزُورُ كُلَّ مكان، ويزغرد في كُلِّ فراغ، لكنه يتجاهل أيَّ غريبٍ هنا.

بدلةٌ وفستان، وعُرسٌ على دمائنا، وحديقةُ بيتنا، أكبرُ حديقةٍ في الحي، تمتدُّ فوقَها الأنوار، وتصطَفُّ فيها الكراسي، ويتوافد المَدعوُّون يحيون الساكِنَ الجديد الذي لم يَدعُه أحدٌ إلى هنا يومًا. في بيتنا المسروق، يُغَنُّون ويرقصون، وهذه هي ذاتها صَلاتُهم. خمسون شخصًا لا تجمع أحدًا منهم جنسيةٌ واحدةٌ مع الآخر، حتى الضابط البولندي، زوجته روسية، لكنهم جميعًا يهود صهاينة، كانوا لا يجدون ما يأكلون في البلاد التي وُلِدُوا فيها، ولا يسكنون

إلا في قاع المدينة، حتى الأثرياء منهم، كانوا جَوعَى، لأن الجوع معنى أكبر من الوجبة اليومية، أتوا إلى بلادِنا، وجدوا أرضًا تجود وبيوتًا مُزيَّنةً بالقرميد، وشعبًا جبَّارًا خارِجًا من وطأة الانتداب، لا يملك سلاحًا وإن ملك العِنَاد، وهم وجدوا السلاح عندهم بغزارة، فمضوا يحاولون عَبثًا إشباعَ شهيتهم للسرقة، ولا يشبعون، وهي مسألة وقتٍ حتى ننتزع من أيديهم السلاح، فيذهبوا دون مقاومةٍ ولا عِناد، ليس لأنهم جُبَناء فقط، ولكن لأنها ليست أرضهم. هل رأيتَ سارِقًا يقاوم أصحاب المكان إن كان بيد أحدهم مسدس؟ يهرب فقط، ولو سقط سروالُه وهو يهرب فلن يتوقف ليلتقطه.

جاؤوا في عصاباتٍ يقتحمون القُرى، ويقاومُ أهلُ القُرى، لكنها لعنةُ السلاح، يدخل السارقون، ويقول الواحد منهم لرَبِّ الدار: «اخرج من بيتي!»، تتجلَّى صورةُ أبي أمام عينيَّ، وفي أذني صدى صوته: «بيت مَن يا ولاد الكلب!»، وأتذكر الشتيمة التي سَبَّ بها الضابط ذلك اليوم، أكتُمُ ضحكتي وغيظي ودمعي في آنٍ واحد، وأقول: «ألفُ رحمةٍ ونورٍ عليك يابا، الله يسهل عليك».

حسن هو الذي كان هناك، تسلَّلَ من الجنود الذين على الحاجز، واستغلَّ انشغالَهم في عُرسِ قائدهم، ووقف مع أطفال المُخيَّم يراقب ما يحدث، قال لي مُتَحَفِّزًا:

ـ إنهم لم يتخلصوا من الكرسي، مسحوا آثار الدم منه، لكنه كان أغمق من لونه الطبيعي. لم يكن قريبًا مني، لكنني أستطيع أن أجزم أن بقعة دمٍ كبيرة أبت أن تزول، كانت على القائم المُلتوي له. ورأيت عمي هناك، ما زال جالِسًا، يضحك، ورأيتهم رغم ابتساماتهم واجمين، عابسين كأنهم في يومٍ تسلَّلَ إلينا من المستقبل، يعود فيه أبوك إلى البيت، وندخل فنجده في كل مكان، بأكثر من نسخة، واحدة منه جالسة تشرب القهوة خلف الباب، وأخرى في الصالة مع أبي تقرأ الجورنال ويحللان الأحداث معًا، ويتبادلان آخر المعلومات القادمة من الجنوب، عن الصواريخ التي طوَّرَها الأولاد، يقولان: «سبحان من يجعل الحَجَر سكينا، ويجعل السكين بارودًا، ويجعل البارود صاروخًا مداه عشراتِ الأميال».

ـ وأنا أتخيل خالتي يا حسن، أمك، عائدةً من أول الشارع، لا تمر على حواجز، ولا يفتشها جندي، ولا

يسرق تينَها ضابطٌ ذيء، تحضر لنا الحلوى، وتحمل فوق رأسها الخضار والفاكهة واللحم، بعدما تكون قد باعت التين كله في سوقٍ لا تتجول به العصابات المسلحة، وتقف مع أمي في المطبخ، تُعِدَّانِ كعك العيد. ألن يكون كل يومٍ بعد ذلك اليوم عيدًا يا حسن؟

تلمع عينه، يبادرني وأد دمعةٍ كادت تضرخ على وجهه وتنهمر من عينه، يقول:

ـ بلى يا فادي.

وينظر في عيني، ونصمت، وتبرق في مقلتيَّ دمعةٌ على وشك السقوط، أبكي، ويبكي حسن، يأخذني تحت ذراعه، وأقول: «يابا»، ويقول: «يَمَّا»، ونصمت بعدها ونحن نبكي ولا نقول شيئًا، تأتي أمي من خارج الخيمة بعدما نشرت الغسيل، فتجدنا واجمين، تجلس وتضمنا، تقبل رأسي مرةً ورأس حسن مرتين، ونقبل يديها، ونسمع سُعال عمي أبي حسن، من الخيمة المجاورة.

كانت خيمةً صغيرةً إلى جوار خيمتنا، ينام فيها من الصباح، ويأتي إلى خيمتنا على الغداء، نأكل كلنا معًا،

ثم يغيب مجددًا، ويأتي بعد غروب الشمس، تضع أمي العَشاء، ونشرب الشاي، ثم يمضي عمي أبو حسن إلى خيمته، وبعدها بقليل يختفي طوال ساعات الليل حتى يطلع الصباح.

ومقابل خيمتينا كانت خيمة أبي ندى، وندى هي تلك الفتاة التي أخجلُ من النظر إليها كلما دخلتُ أو خرجت من الخيمة، جمالُها لا يدعك تتخيلها إذا صرفتَ النظر عنها، لا بد من أن يظلَّ طرفُ عينكَ مُعَلَّقًا بها حتى تشعر بحُسنها الأخَّاذ في مثل عُمري أو تنقص قليلًا تجلس في ركنٍ بعيدٍ كأنها في عالَمٍ آخر، هادئة ووادعة. ذات يومٍ حين لم تكن في رُكنِها وكانت على بُعدِ أمتارٍ مني، قلتُ ستكون قلةَ ذوقٍ إن لم أسألها عن حالِها، وستكونُ فرصةً عظيمةً أن تصبح صديقتنا، قلتُ: «كيف حالك يا ندى؟»، ابتَسَمَت ولم تردّ، ابتسمتُ وكرَّرتُ السؤال، فعَبَسَت ولم تردّ، ثم دخلتُ الخيمة، قلتُ لحسن، فبدا عليه الحزنُ ولم يُجِبني، خجلتُ أن أقول لأمي، وفي اليوم نَفسِه على العَشاء حكى عمي أبو حسن عن ابنة الجيران التي فقدت النطق منذ يوم التهجير، أخذوها للأطباء، وأحضروا لها حكيمًا إلى هنا، لكنه قال إنها تحتاج إلى التأهيل، أو صدمةٍ أخرى كصدمة

يوم إخلاء الحيِّ حتى تَنطِق، وبنسبةٍ ضئيلةٍ جدا يمكن عودتها إلى التَحَدُّثِ مجددًا.

بِتُّ تلك الليلة في حزنٍ شديد، وحسنُ بجواري صامتٌ تمامًا، لم يقل أيَّ شيء، ولم نسهر ساعات الليل الطويلة كعادتنا. كأننا فقدنا النطق أيضًا، وفي الصباح كان حسنُ يجلسُ مع ندى أمام خيمتنا، أراهما من الخلف ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر فقط، ولا يتكلمان، وفي صمتهما حديثٌ طويل، انتبه حسنُ لوجودي فدعاني بإشارةٍ من يده لأنضمَّ لهما، وجلسنا ثلاثتنا على الأرض نصنع من الطين بيتًا، وتزينه ندى بالحصى، نضحك، وتتبسَّم ويتوَرَّدُ خَدَّاها، وظللنا هكذا حتى آخر النهار، نبني بيوتًا ويصعب علينا أن نهدمها، لم تكن لُعبة.

كانت البيوتُ من خليط التراب والماء، والتراب كثيرٌ وعينُ الماء لا تنفد. حين خلدت الشمسُ إلى النوم، وبدأ القمر يبزغ، والأهالي يشعلون الحطب أمام خيامهم، كنا قد انتهينا من بناءِ سورٍ قصيرٍ جدًا من الطين اللَين حول خيمتِنا. وطوال الليل، كنا نبني مثله عند خيمة عمي أبي ندى، وأمي لم تنادِنا طوال اليوم إلا على الغداء الذي جلسنا إليه معًا؛ أنا وحسن، وندى، وأمي. وعمي أبو حسن

كان غائبًا طوال اليوم، حتى عاد إلى خيمته آخر الليل، وقال لأمي إنه تناول عشاءَه مع أصدقائه. أي أصدقاء؟ لم يكن لأبي حسن صديقًا إلا أبي.

على بُعد أمتارٍ كانت الأسلاك الشائكة، ومن خلفها يظهر الحي، باهتًا بلا ألوان، مُمتَدَّةً بين بيوته وشرفاته خيوطٌ تَحمِلُ عددًا لا نهائيًا من الأعلام، والسُّكَّانُ الذين لا يكفُّون عن الرقص يؤدون رقصا خائفًا وجِلًا، لا يكاد أحدهم يدخل إلى بيتٍ أو يخرج منه دون أن يلتفت حوله ألف مرة، ويطرق نظره في الأرض خشيةَ أن تلتقي عينه فجأةً بعين فدائيٍّ يخرج من تحت الأرض كأنه مارد، يخطف روحه في ضغطةٍ واحدةٍ على الزناد، أو يحصد جماعةً منهم بحزامٍ ناسفٍ حول خصره.

وزجاجات الفودكا بأيديهم لا تنفد، لا تكاد تنتهي واحدة حتى تُصَبُّ أخرى، يعرف حسن بالفراسة أنواع النبيذ، بين الفودكا البولندية التي يشربها الضابط برفقة اثنين من زُملائه صباحًا، والخمر الروسي الذي تُهديه زوجته لهم في منتصف اليوم، وأكاد أرى شرفتنا من هنا، بعيدة لكنني أحفظها، فتظهر لي تفاصيلها التي لا أراها، وأعمل بوصية أبي، ولا أرى إلا ما أريده، فتتجاهل عيني المرأة

القبيحة التي تجلس في الشرفة تدخن سيجارها وتراقب الشارع، وأرى بيتَنَا، مُحاوِلًا تجاهُلَ العلم الذي فوقَه، أفكر في حيلةٍ لاقتلاعه، وتسقط حيلتي على الأسلاك فأعود للضيق مجددًا. لكنني أتذكر أبي، فأتجاهل الأسلاك، وأعود بنظري إلى بيتنا، أحزن وأكاد أعيش الواقع لولا وصية أبي الخالدة، لأبقى -كما استشهد- حُرًّا.

ويقف حسنٌ بجواري، وتقف ندى بجواره، فنصمت، ويشير إلى بيته وينظر إلى ندى ويبتسم، ثم يشير إلى بيتنا وينظر إلى ندى ويبتسم، ولا نقول شيئا. كانت تعجبني تلك الحالة الجديدة التي لم نتفق فيها على شيءٍ مُسبَقًا، فتختفي حاجتنا إلى الكلام في وجود ندى، ماذا نقول؟ هل من شيءٍ يدفعنا إلى الكلام إلا الرغبة في الثرثرة التي تُنسي؟ ومن قال إننا نريد النسيان؟ نريد التسليم بالواقع؟ كان أبي يتكلم طوال الوقت، يثرثر دون توقف، حتى ذلك اليوم الذي سلمونا فيه قرار الإخلاء، صمتَ كما لم يصمت من قبل، لأنه لا يريد أن ينسى، ولم يعد للحديث إلا حين أراد ألَّا ننسى، وكان كلامُه مُختَصَرًا، على مقاس الحدث بالضبط: «بيتي يا ولاد الكلب!». ماذا لو كان يتكلم كثيرًا في هذا الموقف؟ ماذا

لو قال خطبةً في تلك الليلة؟ ماذا كنتُ سأذكر منها؟ كنت سأقول إن أبي قال خطبةً ليلَتَها، ولن أتذكر شيئًا مما قاله، كان اختصاره ردًّا بليغًا، مما صغر حجمه وزاد ثمنه. ولذا كانت ندى أبلَغنا، حين جلسنا في الخيمة نحكي كانت تغوص في ردودٍ عميقةٍ داخل رأسِها، وحين جلسنا أمام الخيمة نتكلم كانت تصنعُ بيوتًا من طين، وحين صمتنا مثلها اشتعل بداخِلِنا شيءٌ ما، أراهن أنه الذي في جوفها طوال الوقت، شيءٌ ثقيل، حار، ينتفض، يبرق، يصرخ، ثم يصمت، ويتبسم شيءٌ يشبه الثأر تمامًا.

يتوافد المصورون علينا يومًا بعد يوم، تذيع القنوات تقاريرها من الشارع، يتزاحم المراسلون إما على سُكَّانِ الخيام أو سارِقي البيوت، وتأتي لجانُ حقوقِ الإنسان وتذهب، فتَحضُر الحقوقُ في حضورهم وتذهب معهم حين يذهبون، ويبقى الإنسان عاريًا من أيِّ حقوق. وتقف عربات الإغاثة توزع على الأهالي خُبزًا وجُبنًا وحساءً، ثم تذهب وتعود في المساء حاملةً أرزًا ولَحمًا، ويصطَفُّ الأولاد في طابورٍ يأخذ كل منهم نصيبَه إلى أسرته، وأقف أنا وحسن وندى في الطابور الطويل، ننتظر دورَنَا في تلقي عطاء الأمم المتحدة، يبحث الموظف عن أسماءِ أُسَرِنا،

ONE PIECE BOOKS

يقول حسن أسماءَ الأُسَرِ الثلاثة، فيضع الموظف بجوارها علامةً أننا تَسَلَّمنا نصيبنا من الطعام اليوم، وأُفَكِّر: ماذا لو جُعتُ آخر الليل؟ ماذا لو جاعت أمي؟ ماذا لو برد الطعام؟ أين نسخنه مُجَدَّدًا؟ ماذا لو غاب أبو حسن اليوم وأراد أن يأكل نصيبَه في الصباح؟

الطعام الذي كان معنا وتطبخه أمي في الخيمة قد نفد، وقالوا إننا لا نستطيع الذهاب إلى السوق قبل أسبوعٍ من الآن على الأقل، مصدرنا الوحيد هذه العربات التي توزع المؤونة، وأفكر، وأذهب بعيدًا، ليس بعيدًا جدا، على بُعد أمتار، حيث مطبخنا، إذ تقف فيه أمي تُعِدُّ طعامًا يكفي خمسة أشخاص، ولو جلس إليه خمسون لكفاهم، وما يريد يوضع في البَرَّاد، وما نريد يُوضع في الفرن، وأصنافُ كُلِّ يومٍ تختلف عن الذي قبله.

وأنظر خلفي فأجد الطابور لا آخر له، رغم أننا حين وقفنا فيه كُنَّا آخره، تحمل ندى طعامَ أسرتها إلى خيمتها، ونحمل طعامنا إلى أمي، نجلس إليه فتقول ننتظر أبا حسن، ويتأخر بزيادةٍ فنضع الأكل أمامَنا بينما يأكُلُها القلق، ويعود أبو حسن في اللحظة ذاتها، فنشعر بلذَّةٍ مُفاجئةٍ في الطعام رغم رداءته، ونطمئن، حتى ننتهي من

الأكل، وسُرعانَ ما ينتهي، فنحمدُ الله ونلعن إسرائيل والأُمَمَ المتحدة.

مائة مترٍ فقط هي الفاصل بين الكابوس والحلم، لكنها مكتظةٌ بالأسلاك الشائكة، والجنود، والحراس، والضباط، وعربات الدفع الرُباعي، وناقلات الجنود، والمُصَفَّحات، والمُدَرَّعات، والكلاب المُدَرَّبة، التي تقول: «هَو هَو»، والتي تقول: «شالوم»، مائة مترٍ فقط وأعود إلى بيتي.

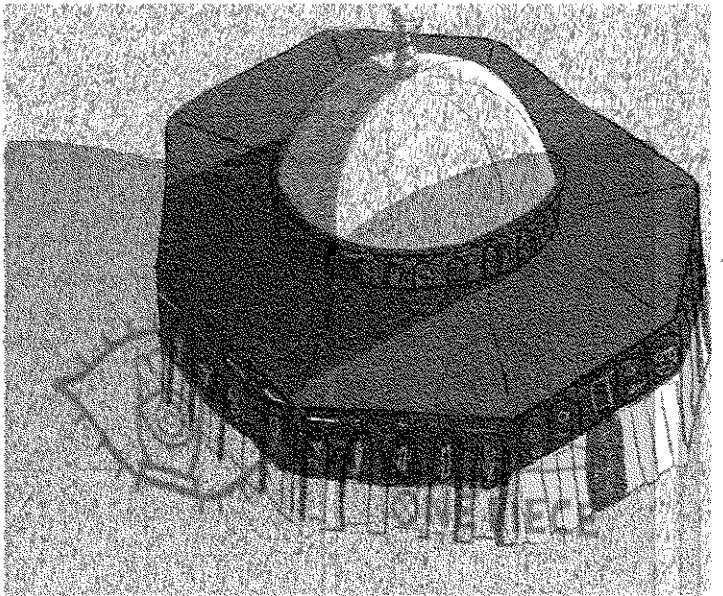

إيـويهـا

كبرت خيامنا مثلما كبرنا، وصار اسمه «المُخيَّم»، تغير جلد البيوت، فتحوَّلت الخيام إلى غُرَفٍ مُعلقة بالصفيح والصاج والخشب فوق جُدرانٍ من الطين، ثم فوق جُدرانٍ من الإسمنت، وأزالوا الأسلاك الشائكة من حولنا، لكنهم بنوا للحاجز بين مخيمنا وحيِّنا نقطة تفتيش، يتناوب عليها الجنود والضباط ليلَ نهار، ودوريات تحوم في المائة

متر وحول المخيم، قالوا إنه يمكننا العبور إلى السوق من خلال العبور بشارعِ الحي، تَعَجَّبنا، قُلنا: «فيها إنَّ»، حتى عبر أول جماعةٍ إلى السوق وعادوا مقهورين يبكون، علمنا أن القرار جاء ربما بناءً على توصية مستشارٍ لهم في الحرب النفسية، وكانوا مخطئين، لأننا أحدًا منا لن يبكي إلا في أول مرة.

كانت مساحتنا التي نطمئن فيها على ديارنا، على الأقل على الأسوار والحدائق، وكذلك نستطيع أن نمعِّصَ بطون سارقينا برؤيتنا كل يوم، والبكاءُ الذي سيكون في المرة الأولى لا بُدَّ منه، وليس ضَعفًا، ولا يرونه، وإنما ننفجر به في خيامِنا، أقصد بيوتنا المؤقتة، لكن الأهم هي المرات التي بعد هذه.

في البداية لم يرضَ أحدٌ أن تتحول الحيام إلى مخيم، أن يجبرونا على أن نتحول إلى مكانٍ له جدران وأسقف، ومُقَسَّمٍ إلى غُرَفٍ بينها حَمَّامات، وتتراصُّ صفوف البيوت جَنبًا إلى جنبها، تتخللها أزقة ضيقة لا تتسع إلا لاثنين من المارة يعبران معًا، وإن كان المارُّ زائد الوزن بعضَ الشيء فإن أحدًا لن يستطيع أن يعبر معه في الوقت نفسه، ستتوقف حتى يمر. قالت لنا المنظِّمة إن خيامَنا تَبلى،

ولا تتحمَّل شتاءً حقيقيًا ولا صيفًا حقيقيًا، وإن علينا أن نقبل ببناء هذه البيوت. أدخلوا لنا الكتل الإسمنتية وأشرفوا على البناء، بترتيبنا القديم، كما كُنَّا في الحيّ وكما كانت الخيام، غرفتنا بجوار غرفة أبي حسن، وتُقابِلُنا غرفة عمي أبي ندى، هي غُرف وإن أطلقنا عليها مَجازًا «البيوت».

مع الوقت وجد الأولاد ضالتهم، وجدوا الجدران التي يطرقونها، يرسمون فوقها ويكتبون ويلعبون ويفعلون كل شيء، كانوا يفتقدون المساحة المُسَطَّحة التي يدلون فيها بآرائهم، وكانت معظم آرائهم كرأي أبي حين مات، تلك الشتيمة التي ستقابلها عينك في المخيم أينما اتجهت.

جلس عمي أبو حسن قُبالتي وحسن بجواره، وأمي بجواري، وبدأ يتحدث مُوَجِّهًا حديثه ناحية أمي، وإن كان يخفض رأسه فلا ترى ملامحه، وقد بدا وجهُه مَخطوفًا، بين توتُّرٍ وخَجَلٍ وقلق:

ـ تعرفين يا أم فادي أنّنا عِشرة عمرٍ طويل، وزوجك المرحوم كان أعزَّ إخوتي وعزوتي وأهلي، وأعرف أن أم

حسن -ألف رحمة ونور عليها-، كانت أعزَّ صديقاتك وكل أهلك هنا، ونحن أهلٌ وأحباب...

صمتَ كأنه ابتلع لسانه، وانتقلت عدوى توتره إلينا جميعًا، ولم أرَ وجهه مُتعَرِّقًا كهذا اليوم أبدًا، أخذَ نفسًا طويلًا، وأكمل:

ـ وولدي وولدكِ إخوة، وعلى بلاطة يا بنت الحلال، لا أريد إلا الخير والمعروف، فلا تكونين وحدك ولا أكون وحدي، وإنما يجمعنا بيتٌ ولو من الإسمنت، ويُظِلُّنا سقفٌ واحدٌ ولو من صاج، أصونُكِ فيه وتصونينني، وأُراعِ اللّه فيكِ وتتقينَه فيَّ، وأنتِ قبل كُلِّ شيءٍ أمانة أخي في عنقي، وأنا قبل كل شيء أمانة أختك في عنقك، فماذا تقولين يا ابنة عمي؟ وماذا تقول يا فادي؟

كان الكلام مُفاجِئًا لنا جميعًا، نزل علينا كحمَّامٍ مياهٍ باردٍ، حتى حسن، الذي بدا كأنَّ أباه وضعَه في مأزِق، ويخطف طرفَ عينِه إليَّ ويكتم ضحكةً أعرفها، وأنا مثله تمامًا، أريد أن أقول: ما دخلنا بكلام الكبار؟!

ابتسمت أمي رغم محاولاتها المُستميتة في أن تظهر بالصلابة الكافية، وكنتُ أشعر بقلبها يكاد يخرج من مكانه، ووجهها يتندَّى خَجَلًا، وتحمَرُّ وجنتاها، وتسقطُ خصلةٌ سرعان ما تخفيها جيدًا تحت حجابها، وتنغُزني من خلفي فلا أدري ماذا أقول، وتصمت وأصمت، ويصمت عمي أبو حسن، وينظر إليَّ حسن ويبتسم مُحَدِّدًا في بلاهةٍ لم أرَه بها من قبل، كأنه يقول لي سنصير أحوين رسميًّا وفي ورق الحكومة، ثم يطرق صامتًا، وتنغزني أمي مجددًا، ولا أتكلَّم. يتلجلج أبو حسن في جلسته، ويفرُكُ أصابِعه كأنه يتقدَّمُ لعروسٍ لأوَّلِ مرة، تنظر أمي في الأرض، وظننتُ أن الحجر قد ينطق قبل أن تنطق أمي، قالت:

ـ القول قولك يا أبا حسن.

وتتفلَّتُ دمعةٌ على خَدِّها، يقول عمي أبو حسن في ابتسامةٍ عريضةٍ على شفتيه كأنَّه يخشى أن تعودَ أمي إلى وعيها، أو أن يعود هو إلى وعيه:

ـ الله أكبر، نقرأ الفاتحة.

نقرأها، ونقول آمين بينما نقوم من جلستنا، فيحضنني عمي أبو حسن، ويحضنني حسن، وأحضن أمي، ويطول

ذلك الحضن، ويرتبك العِرسان، واقِفَين كلٌّ منهما أمامَ الآخر، يتلَعثَمُ أبو حسن بينما يقول لها:

ـ مبروك يا أمَّ فادي.

أظنُّه نطق كل حرفٍ مرتين، وتبتسم أمي وتقول له:

ـ البركة فيك.

كأن «مبروك» صارت اختراعًا تسمع به لأول مرةٍ ولا تجيد الرد عليه، تنصرف أمي إلى أقصى الغرفة لتُعِدَّ لنا جميعًا الشاي، ثم عادت إلينا بعد دقيقتين تحمل صينيةً عليها فناجين قهوة، دَوَّت ضحكاتنا الخشنة في آنٍ واحد، ولم تدرك أمي ما فعلت للتو. حين اكتشفَت الأمر خَبَّأت وجهها بطرف حجابها، وضحكت، ضحكت كثيرًا، وبعد قليلٍ حين انصرف عمي أبو حسن وولده، بكت كثيرًا في رُكنِ البيت. احتضنتُها وطمأنتني وأنا الذي كنتُ أريد طمأنَتها، لم أقل رأيي، أخذوه على أنَّ السكوت علامة الرضا، وأن ابتسامتي فضحتني، لكنني في الحقيقة وددتُ -لولا الملامة- أن أرقص، لأن ذلك الرجل الكريم الوحيد، سيكون مع تلك المرأة الكريمة الوحيدة، وسأطمئن على أمي أكثر، وعلى عمي أبي حسن أكثر، ونحن في النهاية

بيتان وعائلةٌ من قبلِ أن يغادرنا الأحباب، واليوم نصيرُ بيتًا واحدًا وأسرةً واحدة.

لم تمضِ دقيقةٌ حتى سمعنا زغرودةً دوت في المخيم كله، كأنه إعلانٌ لانقضاض الحزن وخلع ثياب الحزن. ما الذي يجعلنا لا نفرح؟ ألم يقل أبي إننا لا يجب أن نرى إلا ما نريده؟ وها نحن لا نسمع أيضا إلا ما نريده، نسمع الزغرودة، ولا نسمع صوتَ الرصاص القادم من الحاجز في الهواء، كأنهم يحاولون تعكير صفونا. بدأت النساء في التوافد، خرجتُ، ومضيتُ يهنئن أمي، ما الذي حدث؟ كيف حدث بهذه السرعة؟ لا شيء، الحربُ عَلَّمت نساءنا الصحافة، يستعلمن عن الخبر من مصادرهنَّ الموثوقة، يتأكدن من صحته، ثم ينشرنه في «عاجلٍ» سُرعانَ ما يصل إلى الجميع. تحولت الزغرودة إلى زغاريد، والتهنئة إلى أغانٍ، والغرفة إلى قاعةِ عُرسٍ وجِنَّة.

والرجال بدأوا يتوافدون على أبي حسن، دخلتُ البيت فاستقبلني بحرارةٍ شديدة، وجديدة، تحمل مشاعِرَ أخرى، فضلًا على التي يحملها لي، وتوافد الرجال، يباركون لي وقد كانوا بالأمس يعزونني، ويرقصون ويسحبون يدي، وقد كانوا بالأمس يبكون ويشدون على يدي، وهذه هي

الدنيا يا عمي. ويحضنني حسن ويقول: مبروك يا أخوي، وأشعر فجأةً أن الدنيا تمشي بالمقلوب، نزَوِّجُ أباه وأمي، ونحن وليَّا أمرِ العروسين، أقول له:

ـ بنتنا أغلى ما نملك، أمانة في عنق ولدكم

ويرد حسن بصوتٍ خشنٍ مُصطَنع:

ـ وابننا سيحملها في عينيه.

ونضحك دون انقطاع. يخرج حسن، ثوانٍ ويعودُ بالشربات. أنظر للخارج فأجدُ ندى، ويضحك حسن كأنّه في وادٍ غير الذي نحن فيه جميعًا، وأبتسم وأقرصه في جنبه، فيخجل. كان المخيم كله في حالةِ عُرس، ولا أحد في بيته، الجميع يشارك في الفرح، الرجال هنا، والنساء في بيتنا، والصاج لا يمنع الصوت، وإنما يضخمه، فتأتي الأغاني من الجدار المجاور أعلى من طبيعتها، ويصل إليهم صوتنا وضحكنا وضجيجنا أكبر مما هو عليه، وتتشارك جُدرانُ المُخيَّمِ الفرح معنا، وتتسع لما تضيق به في حالٍ غير تلك، وتتسع لما هو فوق طاقتها بكثير.

أخرج من عند عمي أبي حسن، أرى البدر مُكتملًا وأتغاضى عن نَقصٍ في دائرته، أشعر أنه كاملٌ ولا بأس

في ذلك. تتسلل عيني من بعيدٍ إلى فُتحةٍ في طرف الباب الموارَب، فأرى النساء والفتيات الصغيرات حولَ أمي، وأرى ندى لأول مرةٍ تصفق في حالٍ أسعد من أيِّ وقتٍ مضى، وأرى شَعرَ أمي يُجَنَّى وعيناها تدمعان، وتمدُّ يديها لامرأتين أُخريين تُحَنِّيان كفَّيها وظهريهما، ويعلو طرب الحي برفقة الزغاريد:

قولوا لإمُّو تفرح وتتهنى

ترش الوسايد بالعطر والحِنة

ويا دار هَنَّا وابنيها يا بنا

والفرح إلنا والعرسان تتهنَّى

والدار داري والبيوت بيوتي

وِاحنا خطبنا يا عدوّة موتي

يا بيِّ مريم لا تكون عَبوسِي

واسمح بوِجَّك واعطى هالعروسة

يا بيِّ مريم لا تكون طَمَّاعي

المالِ يفنى والنسب نفاعي

وأرى ندى ترقص في وسط الجمع مع مجموعةٍ من الفتيات الصغيرات، لا تنطق، لكنها تضحك، وأقول آه لو ترى يا حسن، وأشعر بكَفِّه على كتفي، كأنه سمعني، وعلى ما يبدو أنه يسمع ويرى منذ البداية. وينسى الولدُ العُرسَ والعريس والعروس، ينسى أباه حرفيًّا، ولا يفكر إلا بالحسناء التي أمامَه، وأقول: «يا وقعتك يا حسن!»، ولا يبالي، وعلى فمه ابتسامةٌ بلهاء أراها للمرة الثانية في اليوم نفسه.

ويأتينا الصوتُ من عند عمي أبي حسن، وبدا أن الرجال يأخذونه إلى الحمام الذي يتوسَّطُ صَفَّ العُرَف، ولم ينتظروا حتى يحل الصباح، ونسمع الغناء من عند العريس كأنَّه يردُّ على النساء:

طلع الزين من الحمام

الله واسم الله عليه

طلع الزين من الحمام

ورشوا العطر عليه

طلع الزين من الحمام

كل رجاله حواليه

يا أبو الحطة والعقال

من وين صايد هالغزال

تِيَّالك يا أبو حطة

منين صايد هالبطة

نضحك، ويبدو المُحتَّم في حُلَّةٍ جديدة مسرورًا، لكنه لا يخلع ثوبَ الحِدَاد، وإنما يلبس الأبيض فوق الأسود، ويضع الحِنَّاء فوق الشعر الشائب، ويخضِّبُ الأيدي والأرجل فوق شقوقها، ويحاول رغم دمعاته أن يبتسم، ورغم أنينه أن يغنّي، كانت البَحَّةُ الآتيةُ من حناجر اللواتي يغنين حول أمي تخبرنا بذلك:

سَبَّل عيونه وماد إيدُه يِحَنُّولُه

غَزَال زغير بالمنديل يلفولُه

يا إمي يا إمي عبيلي المخداتي

وطلعت من الدار وما وَدَّعت خَيَّاتي

سَبَّل عيونه وماد إيده يِحَنُّولُه

غزال زغير بالمنديل يلفولُه

يالمي يالمي طاويلي المناديلي

وطلعت من الدار وما ودعت أنا جيلي

وطلعت من الدار وما ودعت أنا إمي

أنا الغربية وهيلوا يا دمعاتي

سبل عيونه وماد إيدُه يحنولُه

غزال زغير بالمنديل يلفوله

يا الأهل يا الأهل لا يجير ليكو خاطر

شو اللي عماكو عن ابن عمي هالشاطر

يا الأهل يا الأهل لا يبري ليكو ذمة

شو اللي عماكو عن ابن الخال والعم

سبل عيونه وماد إيدو يحنوله

غزال زغير بالمنديل يلفوله

وتُمسك الحاجَّة بشعر أمي وهي تغني أوَّلَ شطرةٍ بمفردها، ثم ترد عليها النساء جماعةً في صوتٍ واحد، تبدأ كل شطرٍ بـ «إيويها»، ثم تقوله حتى تنتهي منه، فيردُدْنَ عليها بـ «إيويها»، وبين كل مقطوعتين يزغردن جميعًا:

إيويهـا .. بحنـة مكة جيـت أحنِّيكي

إيويهـا .. يا بدر ضاوي والحلى كله ليكي

إيويهـا .. ما بتليـق الحنـة إلا لإيديكي

إيويهـا .. يا زينة العرايس لأبو حسن أوديكي

إيويهـا .. يا شعـرك شعـر السلسبيلي

إيويهـا .. ويسلـم هالكـم الطويلي

إيويهـا .. ريتُـه يحرسك الله

إيويهـا .. من عيـن الحاسـد والعزولي

وتلتفتُ أمي فجأةً فتراني من بعيد، من الفُتحة نفسها التي أختلسُ منها النظر إليها، كأنَّ بينَنَا منظارًا رفيعًا، عينُها في أحدِ طرفيه وعيني في الطرف الآخر، تضحك لي

وأضحك لها، تداهمها الدموع بينما يتحرَّكُ رأسُها انصياعًا مع حركة اللواتي يحنينها، تريدُ أن تقولَ لي شيئًا، وأعلم ما تريد قولَه، وأريدُ أن أقولَ لها شيئًا أنا الآخر، أقول: لا تقلقي، اطمئني يمَّا، هذا حقك، لا تفعلين عيبًا ولا حرامًا، ولو جاءكِ أبي في المنام سيقول لكِ توكَّلي على الله.

وأريد أن أخترق هذه الصفوف وأحضنها، وأن أتسلَّلَ من بين الجمع الذي يحتفل بها وأقبّلَ رأسها ويدها، وأشعر بصدقها يصل إلى صدري، وبإحساسها في هذه الحال المعقدة يغصُّ في قلبي، لكنني أطمئنها مجددًا، وفي تلك اللحظة تحديدًا ودون أن أخبرها بما أفكر أو أتحرك من مكاني، قامت ترقص بين النساء، وتنظر إليَّ كأنها تقول: «وصلتني رسالتك يمَّا».

وتحضرني صورة أبي، عائدًا آخر النهار، وأمي واقفة في المطبخ، تستقبله عند أول الباب، تضع عنه ما يحمل، يقبل رأسها، ويغيب في الحمام خمس دقائق، ثم يخرج ليجد الطعام على الطبلية، نجلس إليها معًا، ونأكل بينما يتحدث عن آخر الأخبار على الجبهة، ويرينا صور المقاومين في الجورنال، وتعد أمي القهوة لثلاثتنا، ونشربها بينما يواصل أبي حديثه المُخَزَّنِ طوالَ اليوم، وينفقه على

مسامِعِنا دُفعةً واحدة، فنرجو ألَّا ينتهي الحديث، ويأفل قمرنا الذي نأتنس بنوره. أشعر بكفِّ حسن تشدُّ على كتفي مجددًا، وعساه كان يفكِّرُ بأمه، أعرف هذه اللمعة التي تكون في عينيه حينها، ويُطمئنُ كلٌّ منا الآخر بهذه الربتة، كأنما يقول له: «عِش الليلة يا صديقي، كل يومٍ بيومه فقط.»

وأقول في نفسي: لمَ لا نفرح؟ أليس الحزن الدائم هو ما يريدونه؟ سننسى تراث الفرح إن بقينا لا نستعمله، فلنعتبره حتى إحياءً لماضينا إن لم نسلِّم بأنه سنة الحياة في الحاضر والمستقبل وكل زمان.

يقول حسن باسمًا:

ـ أمي الآن مطمئنة يا فادي، أشعر بها، تبتسم في قبرها وذراعاها ممتدتان حتى السماء، ترشُّ الورد من الأعلى، وتزغرد مع هؤلاء جميعًا، تمسك بيدي أمك وترقصان معًا، كما كانتا تفعلان كل شيءٍ معًا، وتنصرف أمك للحمام مع النسوة بينما أمي أولهن، تُحَمِّمها وتعدها للعُرس، وتوصيها على أبي، ولا أعلم هل هذا جنون أم مبالغة، لكنه الذي في

خاطري، إن أمي مرتاحةٌ الآن كما لم تشعر طوال تلك السنوات من قبل، وأشعر بها تضمني إلى صدرها، تقبل جبهتي وتوصيني بالديكة غدًا، تقول: «حتى لا يظن الناس أنك غير راضٍ بزواج أبيك يا حسن، عيب يمَّا، ارقص يمَّا ارقص.»، ثم تضحك وتكمل: «كنتُ أظن أنه هو الذي سيدبك في فرحك أولا!».

أبتسم وأعدُّ ردًّا في رأسي لحسن، أريد أن أقول له وأنا أيضًا أشعر بذلك، لكن تسبقنا الأغاني القادمة مجددًا من عند العريس:

احلق يا حلاق بالموس الفضية احلق يا حلاق

تمهل يا حلاق لتتيجي الأهلية تمهل يا حلاق

احلق يا حلاق بالموس الذهبية احلق يا حلاق

تمهل يا حلاق لتتيجي الأهلية تمهل يا حلاق

احلق يا حلاق ومسح بشاشاتُه احلق يا حلاق

تمهل يا حلاق لييجوا عماتُه تمهل يا حلاق

احلق يا حلاق ومسحلُه بكمُه احلق يا حلاق

تمهل يا حلاق لتتيجي إمُّه تمهل يا حلاق

احلق يا حلاق ونعمل له شعراتُه احلق يا حلاق

تمهل يا حلاق ليبيجوا رفقاتُه تمهل يا حلاق

وهكذا، استمر العناء إلى أول الليل، كأنه كان مَخزونًا مُعبَّأً منذ سنوات، وانفضَّ الجمعُ راضيًا، وعاد أهل الحي، أهل المخيم، إلى العُرَف المسقوفة بالصاح، البيوت المؤقتة، وبقيت أمي في بيتها، وعمي أبو حسن في بيته.

دخلتُ إلى أمي، وجدتُها حسناء كعادتها، أضافت الحناء إليها جمالًا إضافيًّا، وبدت عيونها أشد احتياجا إلى الدموع من ذي قبل، وفهمتُ حاجتها، فجلستُ بين يديها، بينما أقول لها:

ـ أجمل عروس يَمَّا.

تمسح على شعري وهي تحضنني، وتقول بينما تبدأ دموعها مسيرها في وجهها:

ـ لستُ عروسًا، ولم أكن عروسًا إلا لأبيك الشهيد يا حبيبي، أما الآن فأنا أتزوج وفقط. عمك أبو حسن رجل أصيل، ولذلك عرض عليَّ الزواج بما وعزَّ عليَّ أن أردَّ شهامتَه أو أجرح رغبته، ولو كان أبوك مكانه وأم حسن مكاني لأحببتُ أن يفعل ذلك، فلا يترك أحدٌ منهما امرأة أخيه تواجه كل هذا وحدَها، وإنما يسهل عليها الرعاية والتربية، ما دام كلٌّ من العروسين يريد ذلك ويشعر براحة في قلبه. ولا يعيب الرجل أن يطلب ما تدعوه إليه مسؤوليته، وإنما يعيبه رُكونُه إلى الخجل من العيب في ظروفٍ أكبر من القيل والقال.

بدَت أمي واثقةً وحازمة كأنها تدافع عن أبي حسن، وعاقلة أكبر مما تخيلتُ، احتبأتُ في حضنِها بينما استسلمَت هي لبكاءٍ جديد، بكاء التيه بين الأفراح والأتراح. كنتُ منذ سنواتٍ طويلة أنام في فرشتي وحدي، لكن في هذه الليلة فقط رجَتني أمي أن أنام في حضنها وأن أعود إلى حضنها -كما كنتُ دائمًا- طفلًا بين يديها، وأن لا يَغُرَّني شاربي الضئيل وأرى نفسي أكبر من أن تضمني، استسلمتُ لطلبها، وأغمضت عيني؛ غاصت هي في نومٍ

عميقٍ بسرعة، وما أبطأ نوم أمي في العادة قبل هذه الليلة، وبقيتُ أنا مستيقظا، أرى أهدابَها ترتعش حينًا، وجفونَها تقشَعِرُّ حينًا، كأنها ترى في المنام حبيبًا اشتاقت له منذ زمنٍ طويل، كِدتُ أوقظها لأقول لها سلمي لي عليه، لكنني طبعتُ قُبلةً على عينها عساها تصل إليه، ثم استسلمتُ لنومٍ طويل.

استيقظتُ على نداء أبي حسن، خرجتُ إليه، قال:

ـ اعذرني يا ابني، بقيتُ طوال الليل أراجع نفسي، وأقول: هل قال فادي رأيه؟ وحسبتُ أني لم أسمعه، أو لم تقله، اعذرني يا ابني، وأخبرني الآن، وأنا أتفهَّمُ ما ستقوله أيًّا كان، قل يا فادي ما رأيك؟

ضحكتُ، وبدا ذلك مُخجِلًا لأبي حسن حين حَكَّ جبهته، قلتُ له:

ـ متى يأتي المأذون إن شاء الله يا زين العرسان؟

ارتسمت على وجهه كله ابتسامةٌ واطمئنان، وقال:

ـ بعد الجمعة يا عمي فادي إن شاء الله.

وانفجرنا في الضحك.

كانت أمي تمسك صورته وتقبلها، تلك هي أول مرةٍ أرى فيها صورةَ أبي الصغيرة هذه مع أمي، لم أكن أعلم أنها الشيء الوحيد الذي اصطحبته من بيتنا. شابٌّ وسيم، جالسٌ يضع إحدى قدميه فوق الأخرى، ويشبك يديه على ركبته، ينظر كأنه صقر، وشاربُه محلوقٌ بعناية، ووجهه نظيفٌ تمامًا، لامعٌ كالصفوان، تختلط بشعر رأسه بوادرُ شيب، لكن ضحكته توحي بمدى شبابه وصغر سنه، وحبه الجم للحياة.

أقول: كيف أحَبَّ أبي الحياة بهذه الصعوبة؟ وكيف فارقها بهذه السهولة؟ ردَّت أمي كأنها تعيش بداخلي:

ـ أتعرف يا فادي؟ مات أبوك لأنه يحب الحياة أيضًا، هل عدم الخوف من الموت دليلٌ على كرهها؟ عدم الخوف من الموت أكبر دليلٍ على أنك لا تحبه، لكنك في الوقت نفسه لا تخشاه. أتعلم؟ إن الذين يخافون من الموت يخافون من الحياة كذلك، ولا يحبونها ولو توهَّموا غير ذلك، لأنهم يودُّون لو لم يُولَدوا من الأساس، بينما أبوك، يا حبيبي يا أبوك... يا ضنايا يا أبوك...

بكت أمي، غلبتها دموعها، وأنّتْ كطفلٍ صغير، حاولتُ التماسك، وتماسكتُ، قلت لها:

ـ وحِّدِي الله يمَّا، اليوم عُرس.

مسحت دمعاتها، وأكملت وهي تقاوم أنينًا آخر في قلبها:

ـ بينما أبوك يمَّا كان يحب اليوم الذي وُلد فيه، ويحب الأرض التي وُلد فوقها، ويحب البيت الذي ترى بين أحضانه، ويحب الحياة كما لم يحبها الذي قتله. أتدري مَن الذي يعيش في البيت الآن؟ أبوك الذي يعيش على الكرسي، لم يكن ليترك ما صنع جدُّك ذات يوم، وتلك البقعة، بقعة الدم الكبيرة في جانب الكرسي، هي أبوك، الحي، الذي ما زال -منذ عامين- يجلس هناك.

كنتُ أبكي، بينما تواصل أمي الحديث، قلتُ:

ـ وهل رأيتِ بقعة الدم؟ دعوتُ الله ألا تريها!

قالت وابتسامة انتصارٍ طفوليةٌ تتشكل فوق شفتيها:

ـ وأنا دعوتُه أن .أرى طيفًا من أبيك، أتُرى الله يستجيب لك ولا يستجيب لي؟ يمَّا أنا لا أذهب إلى السوق ولا آتي منه، ولا أتحايل لأعبر من الحي ولا أتحمّل التفتيش إلا لأسلم على أبيك، أقف أمام الباب، أتلكّأ، وأبتسم، فأشعر به يولَدُ من دمِه من جديد، ويعود إلى كرسيِّه، وفي يده فنجان القهوة الأخير ما زال لم ينتهِ منه، يقول لي: سلمت يداك يا أم فادي، وأودُّ لو أجري إليه، أن أذهب فأُقبّله وأرتمي في حضنه، لولا الحديد يا فادي، يلعن أبا الحديد.

ـ لولا الحديد يمَّا؟ الحديد فقط؟

ـ أجل، والله لولا الحديد فقط، لولا البوابة، أما هو، فإنني أراه كما أراك الآن بالضبط. منذ أن فتحوا المرور بالحيِّ، وأنا أذهب إليه، ويسألني عنك، وأقول بخير، يحمد الله ويقول لي: لا تتأخروا.

كانت نساء الحي يطرقن الباب، سلمتُ عليهن وهَنَّأنَني وخرجْت، وحسن ينتظرني في الخارج لنذهب إلى الحمام، وقفنا من أجل الدور، لكنَّ الناس قدمونا إلى الحمامين

الوحيدين للرجال في هذه الوحدة من المخيم، تحممنا، ووضعنا العطر، وخرجنا في جلبابين أبيضين وعلى رأسنا الكوفية، ما هذا الجمال؟ كأننا عريسان في طريقهما لعروسيهما، أو دعنا نقول إن أحدنا كان عريسًا بالفعل، يكاد يرقص لأن ندى رأته ونحن ذاهبان للجمعة.

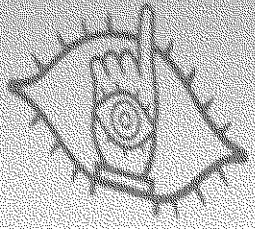

يقول لي:

ـ العقبى لك.

أجيبه وأنا شاردٌ في خيالي:

ـ أن أحب؟

ينغزني ويقول:

ـ أقصد عُرسك يا هامل.

أغمز له في مكر، ويكاد يجري ورائي لولا الهيبة التي أصبح فيها منذ تحممنا وارتدينا ثياب الفرح والوقار.

نحضر خطبة الجمعة في مسجدٍ بسيطٍ بنوه في طرف المخيم، وحديث الإمام عن الزواج، وسنة الله في الكون، وأن إقبالنا على الحياة أكثر يغيظ الأعداء. ومِن جمال المخيم بساطته، وأننا جميعًا يعرف بعضنا بعضًا،

وموضوع خُطبة كل أسبوع تحدده مجريات الأحداث هنا، فمرةً يكون الحديث عن الغيبة والنميمة إذا وصل الإمامَ أن خِصامًا بين الأهالي حدث بسبب القيل والقال، وتارةً يكون عن السرقة إذا اختفى حذاءُ أحد الأهالي من أمام البيت، وتارةً عن التبذير إذا وُجد أحد الناس يسرف في المياه والخزانات تكفي بالكاد، واليوم، كان الإمام يتحدث عن زواج أبي حسن وأمي.

صلينا ثم مضى الإمام معنا، مشينا جماعةً إلى بيتنا، وكنتُ أنا وحسنٌ نتلكأ في آخر الجمع، يغلبنا الوقار ونغلبه بالتفاهة، حتى جذبنا أبو حسن إلى جواره في مقدمة المسير، عريسنا الذي يسير زاهيًا في جلبابه الأبيض الناصع، وحطته وعقاله، نشبك أيدينا إلى أن وصلنا إلى بيتنا. نغزني أبو حسن، فتقدمتُ لباب الغرفة وسعلت لأنبه النساء لقدومي، وكادت تصيبني شرقة، وتخيلتني رجلًا كبيرًا سيدخل ليُقَبِّلَ رأس ابنته قُبيلَ عقد قرانها، ودخلتُ بينما اعتدلَت النساء واحتشمن جميعًا، فوجدتُ عروسًا -تَبارَك الله-، بعينيها يتكحَّلُ الكحل، وفي وجنتيها حُمرةٌ طبيعيةٌ تمامًا، وتطل من حجابها خصلةٌ أعرف منها استقرار الحِنَّاء في شعرها بهذه الدرجة من اللون.

ترتدي أمي ثوبَ العُرس؛ أسود فيه طرزٌ أحمر على الصدر، وفي الجنبين وطرفِ الثوب من الأسفل، فَصَّلَته لها خياطة الحي، المُخيَّم، يدويًّا بناءً على رغبتها، بدلًا من الثوب الأبيض المُطَرَّز بالأزرق.

ودعوتُ أبا حسن، وحسن، والإمام، وثلاثةً من كبار الحي، دخلوا وجلسوا، وتوسط الإمام المجلس بين أبي حسن وواحدٍ من الكِبَار رأت فيه أمي أن يكون وليَّها، وقُرئت صيغة العقد، ووصل الإمام إلى الدعاء لهما بالبركة، وقبل أن يقول: «آمين»، كانت الزغاريد قد وصلت إلى كل ركنٍ من أركان الحي، والمخيم، وتقابل الرجال بالأحضان، بينما كانت أمي بين أحضان عشرات النساء في وقتٍ واحد، وأسمع أصوات قبلاتهن على خديها، يهنئنها، ونهنئ نحن أبا حسن، والزغاريد تنتقل بالعدوى من بيتٍ إلى بيت، والصدى يردُّ علينا مُضاعِفًا الفرح. وأمسَكَ أبو حسن يد أمي، التي لم تسلم على رجلٍ في حياتها بعد أهلها، غير أبي، لا من قبله ولا في حضوره ولا من بعدِه، ها هي تسلم يدها لذلك الرجل الهادئ، الجريء في مواضع الحق، رفيق أبي وصديق طفولته وصباه وشبابه حتى استُشهِد، وأبي صديقي وأخي حسن، رفيق عمري، لا أقول طفولتي

وإنما حين كنتُ أزحفُ على بطني في فناء البيت، وكان يبدأ هو المشي شيئا فشيئا. ويشد أبو حسن برفقٍ على يد أمي، ويسيران مُبتَسِمَين ولا أحد غيري يعلم ما في صدرها بهذه اللحظات، وأنا شابِكٌ ذراعي في ذراعها، أسير في موكبهما، وحسن يشبك ذراع أبيه، ويصنع أهالي الحيِّ حلقةً كبيرةً في الحوش الذي يفصل بين باب مخيمنا والحاجز في مدخل حينا، ووقفنا جميعًا، أمام عيون الجنود، على مرمى أبصارهم، نرقص الدبكة، ويتكاتفُ الرجال جميعًا كأنهم أعوادُ قَمحٍ أو دُرةٍ مُتراصة في حَقلِ البلاد الأخضر، يتمايلون مع الهواء، وتتمايلُ رؤوسهم للأمام والخلف كالسنابل تسلم نفسها للرياح، وتتحرك أقدامهم مع الإيقاع دون أن يُخِلَّ أحدهم به، ومن خلف الرجال تقف نصف دائرة من النساء خلفها أنصاف دوائر أكبر منها، لأن أعدادهن دائمًا ما تكون أكبر، ولا يفنين أبدًا، وترقص الأحبَّةُ التي في أرحامهن، والأولاد الذين على أكتافهن، قَدمًا للخلف وقدمًا للوراء، ويدبك الأطفال أيضا وسط الحلقة، في حركاتٍ غير منتظمة، لكنها محاولاتهم الأولى، وجذبني الناس أنا وحسن، ودبكنا لأول مرةٍ -أمام الناس- معًا، واليوم لسنا بدور الأخوين أو الصديقين فقط،

وإنما بصفتَينا أهل العريس وأهل العروس. وينظر الجنود والضباط، ويتجمع اللصوص، سارقو بيوتنا في الحي، الذين على رؤوسهم الـ «كيباه»، يشاهدون قومًا لا يأكلهم الحزن، وإنما يأكلونه، ولا يفارقون الفرح، وإنما يتحايلون على الظروف ليلتقوا به، ونرقص، ويهمس بعضهم في آذان بعض فرحًا لتغيظهم، ويقف الجنود عاقدين أذرعهم، وتنطلق من مكانٍ ما في المخيم، في لحظةٍ فاجأتنا جميعًا، طلقاتٌ في الهواء؛ تحيةً للعُرس الكريم. يُصعَقُ الجنود والضباط ويذهلون، ويجري المستوطنون إلى دورنا التي سرقوها، يختبئون، وتزغرد نساء الحي زغاريد أعلى من التي زغردنها طوال حياتهن، ويدبك أبو حسن، ويمسك بيدي أمي، وتفرح أمي كأنها تنسى زفافها نفسه وتريد أن تطير فرحًا بالصوت الذي سمعته مع أهالي الحيّ الآن، وأفكر أنا وحسن، وبالتأكيد كل أهل الحي: مَن الذي أطلق الرصاص؟ ومِن أين جاءت البنادق؟ ومن يستطيع هنا أن يملك البارود؟ كُنَّا ذاهِلين إلا أبا حسن، لم يقطع دبكته ولا رقصه، وإنما ازداد اتساعُ ضحكته، كأن أحدًا قال له: «والله سأفعلها وأطلق خزنةً كاملةً في فرحك!»، واليوم

يفي بعهده، ويطلق خزنةً كاملة، ويضحك أبو حسن كأنه يقول له: «يلعن عدوَّك يا رجل، ينصر دينك!».

وبقي الرجال يدبكون، وبقيت النساء يصفقن ويزغردن، وبدا العرسُ تأسيسًا لمرحلةٍ جديدة، وبدا الفرح فرحين، ونفضَ الناسُ خواطر الحزن عنهم، وأمي أولهم، وما أجمل ذلك العُرس! الذي ليس لزفاف اثنين من المخيم، وإنما عرسٌ يُقام لأول طَلقةٍ من المخيم، يا فرح الله! ويغني الشباب مع الدبكة:

علِّي الكوفية علِّي ولُولَخ فيها

وغني عتابا وميجانا وسامر فيها

هِز الكتف بحنية

جفرا عتابا ودحية

خلي البارود يهلل ويحليها

علي الكوفية علي ولولح فيها

وغني عتابا وميجانا وسامر فيها

علي الراية برام الله وبجبال النار

وعقال العز عقالك عزم وإصرار

والطلقة الأولى فيها حكاية مشوار

عند الحق نخلي العالي واطيها

علي الكوفية علي ولولح فيها

وغني عتابا وميجانا وسامر فيها

إحنا زرعنا البيارة تين وزيتون

وبذار القمح علينا وبيدر ليمون

رهن الإشارة يا وطن نحنا حنكون

يوم العرك دروب النصر نضويها

علي الكوفية علي ولولح فيها

وغني عتابا وميجانا وسامر فيها

هز الكتف بحنية

جفرا عتابا ودحية

هز الكتف بحنية

جفرا عتابا ودحية

خلي البارود يهلل ويحليها

وانتقلت أمي من غرفتها إلى غرفة أبي حسن، وانتقل حسن من غرفة أبيه إلى غرفتنا، وصرنا بيتًا واحدًا من غرفتين.

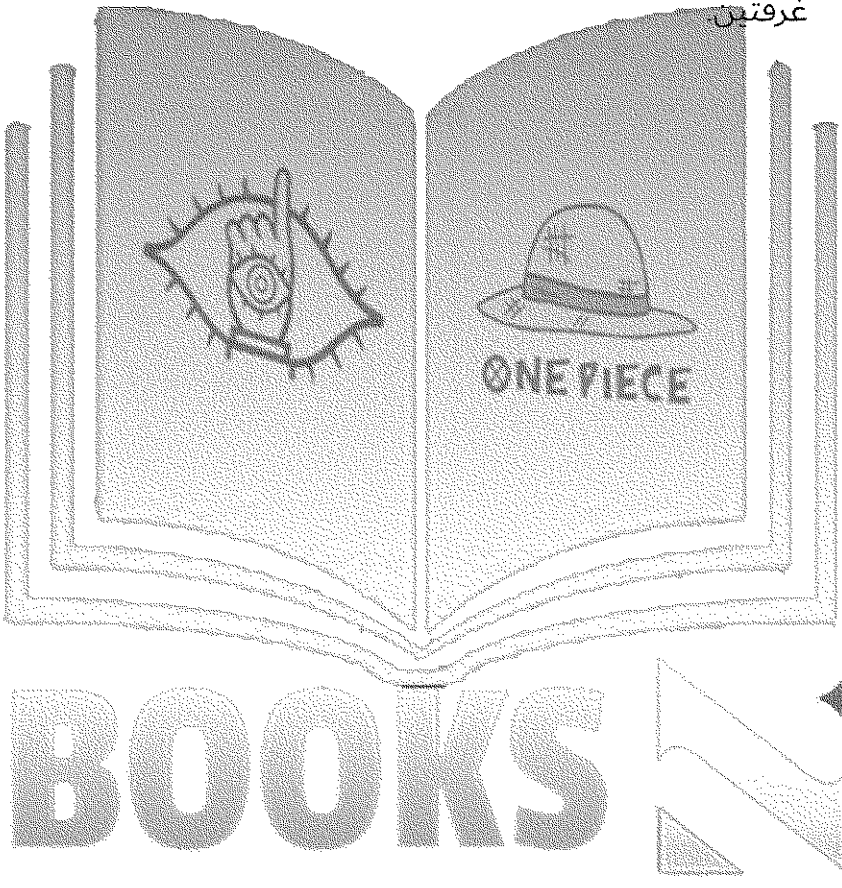

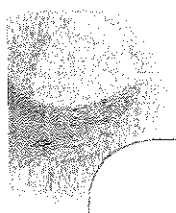

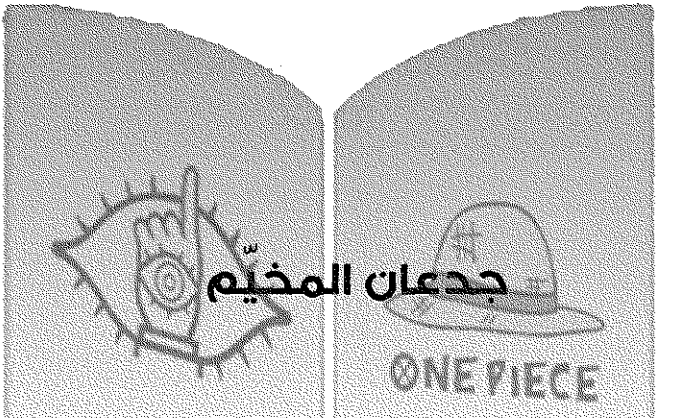

جدعان المخيّم

في صباح اليوم التالي كان عشرات الجنود يقفون أمام مدرعاتهم يحاصرون المخيم، وعشراتٌ آخرون أمام البيوت وبين الحارات، على باب كل بيت، يُخرِجون أهله ويفتشونهم ذاتيًّا، يُفرغون محتويات الغُرَف المؤقتة، اجتمعنا كلنا في الحوش الكبير، رأيتُ أمي مع النساء وأطفالهن تحيط بهنّ الجنديات في طوقٍ أمني، والرجال واقفون وأياديهم فوق رؤوسهم، ونحن أخذونا أيضًا إلى جوارهم وأمرونا برفع الأيادي، وأعمارنا بين العاشرة والسادسة عشرة، ورأينا أبا حسن، يقتادونه إلى المدرعة مع عشرة رجالٍ آخرين، ظلوا دقائق بعدها ثم انصرفوا، عاد

الهدوء إلى المخيم، ولا أحد يعرف ما الذي كانوا يبحثون عنه، في العادة كانوا يداهموننا من وقت إلى آخر، يتجوَّلون في الأزِقَّة، يفتشون بيتًا أو بيتين، ثم ينصرفون، أما ما حدث اليوم، كان لأول مرة. سألتُ أمي، قالت لا شك أنه بسبب الأعيرة النارية التي أُطلِقت في الفرح، لكنها بدت وكأنها لا تبالي، وزوجُها مقبوضٌ عليه لدى الاحتلال في صباحية عرسهما، شككتُ في مشاعِرِها في البداية، ثم شعرتُ أنها تعرف شيئًا ما، كانت مطمئنة، تدعو لأبي حسن في ارتياحٍ شديد، وعلى وجهها ملامح مرتاحة لم أرها إلا قليلًا على وجهها القَلِقِ طوال حياتي.

بعد أسبوعٍ عاد أبو حسن، لم يأخذوا منه شيئا، ولم يستطيعوا استخلاص أي إفادةٍ منه، قال إنهم عذبوه بالصاعق الكهربيِّ، وعَلَّقوه في حلقاتٍ بالسقف، وعلَّقوه مقلوبًا، وعلقوه مُقيَّدًا، وأغرقوا وجهه في المياه؛ الساخنة جِدًّا، والباردة جدًا، وحاولوا نزع أي كلامٍ منه، لكنه لم يقل إلا إنه كان في عُرسِه، وكيف يعرف من أين انطلقت الطلقات؟ ولا من أطلقها؟ ومَن يحمل البارودة ومن أين أتى بها؟ ثم إنه كان مُنشَغِلًا طوال الوقت في الخطبة، في الحمام، في استقبال المعازيم، في الزَّفَّة، في الزواج، ثم

كيف يداهمون رَجُلًا بعد ساعاتٍ من دُخلَتِه؟ حَوَّلهم أبو حسن إلى متهمين ووقف هو -مُعَلَّقًا في السقف- يسائلهم. استجوبوا الرجال العشرة، لم تكن لهم علاقةٌ بأي شيء أيضًا، سوى أنهم دبكوا بسرعةٍ أكبر، وبحماسةٍ أكثر حين سمعوا أصوات الرصاص، الجنديُّ الذي كان يصور العرس من بعيد ويلتقط وجوه الحاضرين، قال إنه قرأ في وجوههم علامات السرور بما حدث.

بعد عودة أبي حسن، تغيَّر شيءٌ ما في وجه أمي، باتت تغيبُ في بيتها عند أبي حسن أكثر، واهتمامها بي تضاءل، قالت لي:

ـ كبرت يا فادي، وأبو حسن يحتاج إلى الرعاية أيضًا. سامحني يا حبيبي إن قصرتُ يومًا، لكني لن أنقطع لحظةً عن اهتمامي بك، لكن عليك أن تخدم نفسك أيضًا، لم تعد طفلًا ينتظر أن أغير له الكافولة، فُطمتَ يا ولد!

وتضحك بينما تقبل رأسي. صارت تختفي في بعض الأوقات يومًا كاملًا، ثم تظهر يومين كاملين، تجلس فيهما معي أنا وحسن بغرفتنا طوال الوقت، ونسألها فتقول:

«إن أكل العيش مُرّ، وأبو حسن يبيت يومين في عمله.»، وتبتسم.

هذه الأيام رأيتُ أمي سيدةً أخرى تمامًا، امرأةً يملأها الأمل، بها قوةٌ لا أعلم مصدرها، لكنها صارت أخفَّ في الحركة، وأثقل في التفكير، وأقلّ في الكلام، تطبخ لنا ما يرمُّ عِظامَنا، وبدلًا من انتظار أبي حسن كما كنا نفعل سابقًا، صرنا نأكل دون أن ننتظر، وتقول إنه لن يأتي الليلة وستبيت هي معنا، ننام، ونستيقظ فلا نجدها، ثم بعد قليلٍ تعود وتقول إن أبا حسن عاد من العمل فَجرًا فاضطرت إلى الذهاب له، وتارةً ننام وتذهب وتعود ونحن ما زِلنا نيامًا. كان أبو حسن شُغلَها الشاغل، وكان ذلك الشغل، والانشغال، والغياب، والظهور المفاجئ، أمرًا غامِضًا، لأنه مُبالغٌ فيه.

يأتي أبو حسن، يجلس معنا بعد صلاة الجمعة وقد مضى قبلها يومان لم نره، نأكل ويتندَّر، يتخلى عن طبعه الهادئ، ويضحك طوال الوقت، يلقي النّكات فننشغل عن سؤاله بهزاره، وينقل لنا آخر الأخبار، يقول إنه سمع من أحد العُمَّالِ عن شُبَّانٍ في الشمال اعترضوا جِيبًّا عسكريًّا بالزجاجات الحارقة، ويحكي لنا ما جرى

بالتفصيل، وعن العملية التي وقعت قُربَ معسكر في الداخل، تسلل الشبان إلى محطة الباصات وفَخَّخوا أحدها، وفور صعود الجنود فَجَّروه، فوقع ما لا يقل عن عشرة قتلى وعشرين جريحًا، لكنَّ الإسرائيليين -كالعادة- لا يعلنون عن خسائرهم. يتحدَّثُ عن العمليات كأنها أفلام، كانت جلستنا عبارة عن سينما من صنع أبي حسن، يبث فيها أفلام الـ «سوبر هيرور»، ويسرد لنا الحكاية ولا أروعها مخرج. يستوقفه سؤالٌ مني مرة، ومن حسن مرة، ومن أمي مرة، يجيب أحيانًا ويتهرَّب من الإجابة أحايين أخرى، وتُدَثِّرُ أمي حكاياته بدعواتِها، وبـ «اسم الله عليهم»، خاصةً كلما ذكر ذكاء أحدهم في مواجهة، أو نجاةٍ آخر من موتٍ مُحَقَّق.

ـ من الذي أطلق النار يوم الفرح يا أبي؟

داهمه حسنُ بالسؤال مُقاطِعًا حكاياته، أطرقَ لثوانٍ، بدا أنه سينصرف، أو لن يقول شيئا، لكنه خفض صوته، وقال لنا مبتسمًا:

ـ جدعان المخيم.

ثم خرج وبرفقته أمي إلى الغرفة الثانية.

ـ ماذا قصد بـ «جدعان المخيم» يا حسن؟

ـ جِدعانُه يا فادي.

ـ مقاومون؟

ـ وهل في الأرض جدعان غيرهم؟

ـ في مخيمنا؟ كيف؟

ـ من يملك العزم لقتل عدوه لن يصعب عليه تدبير الرصاص.

ـ وكيف استطاعوا تدبيره؟

ـ مثلما أحضروا البنادق قبل أن يحضروا الطلقات.

ـ يا صبر أيوب، وكيف أحضروا البنادق؟

ـ من الذين جربوها في جبهاتٍ أخرى قبلهم.

ـ يلعن عدوك! والذين جربوها، من أين جاءوا بها؟

يغرق حسن في هيستيريا ضحك، ثم يعتدل ويقول بينما يغالب المزيد من الضحك:

ـ من آبائهم، وآباؤهم ورثوها من أجدادهم، وأجدادهم إما اشتروها من تُجَّارِ السلاح قبل الجدران العازلة،

ONEPIECE BOOKS

وإما غَنِموها في معاركهم مع الذين يبنون الجدران العازلة. يبنون السياج الفاصل ويظنون -هؤلاء الحمقى- أنهم بهذا سيمنعون انتقالَها، ولا يعرفون أن المقاومة عدوى حميدة، تنتقل مع الهواء فوق أي سياج، ولا تقتل أصحابها -حتى ولو ماتوا- وإنما هي السبيل الوحيد ليبقوا أحياء.

ـ وماذا بعد الفلسفة يا حسن؟ المهم، ألا يمكننا أن نصير «جدعانًا»؟

ـ كلُّ شيءٍ بأوانه يا فادي، البندقيات تجيء على قدر العدد بالضبط، ولن ننضم إلى الجدعان إلا حين يَخلوَ لنا مكانٌ معهم.

ـ مم.. وكيف سيخلو لنا المكان؟

ـ بسيطة، نحن اثنان يا فادي، إما أن نرث بندقيتين من اثنين، وإما أن يغنموا بندقيتين من اثنين، فيستدعوننا.

ـ وما الذي يجعلهم يستدعوننا دون غيرِنا من شباب المخيم؟

ـ لا شيء... غير أني أعتقد أن لنا واسطةً هناك.

أبتسم، وأشعر بملمس الزناد تحت سبابتي، أتخيلني مُلَثَّمًا بالكوفية، أرتدي الزيَّ المُموَّه، أو الأسود القاتم، أخرج في دُجَى الليل، أنفذ عمليةً هنا أو هناك، أشتبك مع قوةٍ خاصة من جيش الاحتلال، يزورُني طيفُ أبي، يزداد وضوحًا في خيالي، مُبتَسِمًا، شادًّا على كتفيَّ، يوصيني بشيءٍ لا أسمعه، لكنَّ شفتاه تتحركان، أحاول تبيُّنَ ما يقول، أقترب أكثر، أراه مُجَدَّدًا، يركل الضابط بقدمه فيمرغ وجهه في الوحل وهو يصرخ «اتبني يا ولاد الكلب!»، وأراه غارقًا في دمائه فوق الكرسيِّ الهَزَّار، يتحرَّك، وهو يقول: «بيتي يا ولاد الكلب!»، ويثبت فوق الكرسي، بينما الكرسيُّ يهتزُّ بسرعةٍ أكبر، تلفحه الرياح بقوةٍ يستجيب لها كأن أبي ريشة فوقه، وأرى وجه الضابط البولنديِّ فأشعر بحرارة الزناد تحت سبابتي، وبحُرقةٍ في صدري، ثم بنسيمٍ هادئ باردٍ في خيالي، حيث يظهر أبي مجددًا، وقد غُسِلَ من آثار الدم والرصاص، عدا بُقعةٍ كبيرة في قلبه، ظاهرة لكن لا يبدو أنها تؤلمه، يلوّح لي ويقول: «لا تتأخَّروا!»، أومئ برأسي وما زال يقول: «لا تتأخروا!»، يبتعد تدريجيًّا، وتختفي صورته، ويبقى صوته: «لا تتأخروا!»، فأقول: «حاضر يابا، في الطريق يابا»، ثم أرددها أسرع،

وقلبي يخفق، وصدري يهبط ويصعد، وتتقطع أنفاسي، وأقول: «في الطريق يابا»، ويظهر صوتُ أبي لمرةٍ أخيرةٍ بعد اختفائه تمامًا، يقول: «لا تتأخروا!»، وأقول: «في الطريق... في الطريق... في الطريق»، بينما أجد نفسي فجأةً غارقًا في عرقي، وحولي ظلامٌ يتفتَّحُ بالتدريج، ورأسي بين يدي أمي، وحسن مشدوهٌ بجوارها، جبهتي مُتعرِّقة، والمزيد من العرق يسيل من كل جسمي، وأنظر في الأرجاء أبحث عن أبي، أتفقَّدُ المكان للحظاتٍ قبل أن أستوعب أننا في غرفتنا التي بالمحيم، وتبعد مائة مترٍ عن بيتنا الذي في الحي، الذي استشهد أبي على بابه قبل عامين. وتقول أمي: «بسم الله يمَّا، اسم الله عليك يمَّا»، ويسقيني حسن كوبًا من الماء، وأكتشف أنني غفوتُ بينما يحكي لي حسن عن أنواع البنادق، وما يستعمله المقاومون، وما تستعمله قوات العدو، وعن كل ما عرفه من معلوماتٍ عن التصويب والقنص من حكايات أبي حسن له، التي ورثها بدوره عن أبيه أيضًا، وحكاياته الحديثة، التي لم يرثها على ما يبدو، وإنما عرفها من مصدرٍ ما، مصدرٍ خاصٍّ لم يُسَمِّه.

وتسألني أمي عمَّا رأيت، فأخشى أن أجيبها كيلا تقلق، لكنها كانت تسمعني قبل أن أفيق، فأقول إنني رأيت أبي في المنام، يرتدي أبيضًا في أبيض ويقول لي: لا تتأخَّروا، وأقول له حاضر، وتنظر إليَّ أمي نظرة تصديقٍ أو تشكيك، لا أدري، لكنها كانت قَلِقةً جِدًا علي، تضمني إلى صدرها، وتربت على ظهري، وحسن يمسك يدي، ويقول لي مازحًا، يحاول أن يكسر حالة القلق والتوتر:

ـ فاتتك محاضرة عسكرية عظيمة.

فأضحك، وأشعر بإعياءٍ بينما أبتسم، فأريح جفنيَّ وتقول لي أمي:

ـ نَم يمَّا وأنا بجوارك لا تقلق.

وأضع رأسي في حجرها، وأغمض، وأغيب عن كل ما حولي في نومٍ طويل.

أفتح عيني فأجد الليل قد مضى أوله، وأبو حسن فوق رأسي، لا أعلم أهي بقية الحلم أم إنني استيقظتُ منه، يضع كماداتٍ فوق جبهتي المُتعَرِّقة، يدنو مني، يطبع قُبلةً فوق جبيني ويهزر معي، وبجواره أمي، وعلى يساري حسن، يقول أبو حسن:

ـ نزل الوحي يا سيدنا فادي؟

ثم يضحك، وأضحك، وأريد أن أقول له جِدِّيًّا: «مِن أين عرفت؟ كيف؟ من قال لك ذلك؟ مَن أفشى السر؟»، وكنتُ أشعر فِعلًا أنّه نزول وحيٍ من نوعٍ آخر، شعورٌ غامضٌ يتجلى في الصدر، حُرقةٌ لا تهدأ، أقول لأمي إنَّ نارًا في صدري، تسقيني الحليب، فتزداد النار تَسَعُّرًا ولا تهدأ، وتحضرني صورة أبي مجددا، أنظر في سقف المخيم وتغرورق عيناي، أشعر بشوقٍ حارٍّ إليه، أريد معانقته، ولا أستطيع، لا أرى إليه، ما زال كلما مددت يدي يرتفع أكثر، ويقول بصوتٍ يبتعد تدريجيًّا: «لا تتأخروا»، وما زلتُ أرفع يدي إليه كأنني لا أرى في الغرفة سواه، وكأنني لا أرى في الغرفة سوى بيتنا في الحي، وكأنني لا أرى إلا رجلًا قادمًا من أول الدار يفتح لي ذراعيه، وأجري نحوه رافِعًا ذراعيَّ، أقول: «بابا.. بابا!»، وتحضنني أمي، فأشعر بالخجل إزَّاء ما كنتُ أفعل، وأنظر حولي لأرى من شاهد هلوستي، ومن عرفني في لحظات هواني، فلا أجد إلا أخي حسن وأباه.

بعد أسبوعٍ في الفراش تحَسَّنت صحتي، صرتُ أفضل بكثير، وشُفيت من وعكتي، ولا أحد يعلم كيف بدأت،

ومِمَّ جاءت، وإلى أين ذهبت، لكنني الآن مُعافً، وفي صدري شيءٌ جديد، ويدي تأكلني، تريد سلاحًا، تريد حمل بندقية، لم أعد صغيرًا، أُفضي بما في داخلي إلى حسن، يتمتم، ويقول: «اصبر».

خرجنا نلعب في الحوش بين المخيم والحي، اجتمع الأولاد أول ما سمعوا ضربة الكرة في الأرض، فخرجوا من كل مكان، انقسمنا إلى فريقين، أنا على رأس فريق، وحسن في الجانب الآخر، حسن القناص، الهداف، الذي لا تخيب قدمه كما لا تخيب ذراعه أبدًا، وأنا أقف حارس مرمى لفريقنا، والجنود على بُعد أمتارٍ منا يشاهدوننا، ويشتدُّ اللعب، ويحتدم اللقاء، وحسن يخطف الكرة، يراوغ، يجري بها، يقترب مني مُنفَرِدًا، وأنا أحاول التركيز على الكرة، والمرمى أكبر مني، وأوسع مني، وحسن لو أراد أن يصوبها من بين أصابعي لصوَّبها، كل كرةٍ في قدمه مصيرها هدف، وحسن يركل الكرةَ بأقصى قوتها، ثم نجري كُلُّنا احتفالًا بالهدف، لأن المرمى الذي بين كَومَتين من أحذيتنا، لم يكن في بال الهَدَّاف، الذي صوَّبَ الكُرة بمجمع قوتِه في وجه الضابط البولندي.

انكسرت زجاجة الفودكا، وأكل الضابط صفعةً حمراء كبيرة على وجهه الأبيض اللزج، وجرى الجنود بسرعةٍ جنونيةٍ خَلفَنا، وفُزنا نحن بماراثون المائة متر في ألعابنا الأوليمبية الخاصة، والجنود يلهثون خلفنا، حتى دخلنا من بوابة المخيم، وحينها توقف الجنود، فَكَّروا كثيرًا قبل أن يتقدموا، نظروا طويلًا إلى حدود المدخل، وبيننا وبينهم أمتار قليلة، ثم تولَّوا إلى الحاجز.

حينها كان احتفالُنا لسببٍ آخر تمامًا، بأهدافٍ أكبر، أحرزها «جدعان المُخيَّم». وعلى الجانب الآخر من المشهد، تقف وحدها، تبتسم وتصفق في المدرجات الخيالية بينها وبين بطل المباراة، ندى.

الكُرسيُّ الهزاز

ONE PIECE

ـ أين كُنتَ يا فادي؟

صحوتُ من خيالي على مدخل البيت.

ـ في الحي يمَّا، طمئنيني عليكِ، بخير الآن؟

ـ الحمد لله، ماذا كُنتَ تفعل هناك؟

ـ أُجَرِّبُ الحذاء الجديد.

ـ عامان وما زال جديدًا؟

ـ ليس تمامًا، المهم أنه ما زال موجودًا.

قبلتُ يدها، لم تقل شيئًا، وجلستُ على الطبلية التي كانت قد امتلأت للتو بأصناف الطعام، ولا أعلم متى ولا

BOOKS

كيف طبخت أمي كل هذا. دخل حسن، قَبَّل يد أمي وجلس بجواري، ومددتُ يدي إلى الطبق، أمسَكَها، وقبض على ذراعي بشدة، نظرَ إليَّ وعيونه تطقُّ غَضَبًا أراه لأول مرة، قال لي:

ـ لا تأكل حتى تأتيَ بحذائك.

لم تعلق أمي على فعل حسن، لا تراه إلا ابنها وتسعد حين تشاهده في دور أخي الأكبر، قمتُ مُرتَبِكًا، أومأت برأسي أقصد «حاضر»، ومضيت. كبرت. والآن عمري خمسة عشر عامًا، ولم أعد صغيرًا ليجلب لي حسن حذائي من الحاجز، أو لأترُكَ حذائي الجديد يمر عليه الزمان ويصيبه القِدَم وهو تحت التراب. وأغتاظُ من حسن في سري وأنا أعبر الزقاق إلى أوَّلِ الحي، أقول: كيف وضعني عاريًا هكذا أمام جُبني؟ كيف فضحني أمام خوفي؟ بطبيعتي أتجنب الصدام، أوثر السلامة في كل مرة، أقول: ماذا سيحدث حين أعود حافيًا؟ كبرتُ، بَلِيَ الحذاء القديم وصار لي حذاءٌ جديد، لكن أتركه وأقول ماذا سيحدث حين أعود كما أنا من دون حذائي الجديد؟ ماذا لو خبأتُه؟ ماذا لو دفنته؟ وعلى نفس المنوال، أراني غدًا غاضبًا، ثائرًا، أشجع «اللعبة الحلوة» في سري، لكن حين أُوضَع في المواجهة،

سأقول ما المشكلة؟ ماذا لو تركتُ حقي؟ ويجيئون ليُهَجِّرونا من المخيم ليوسعوا الحيَّ المسروق، فأقول: ماذا لو بنيتُ خيمةً في منطقةٍ أخرى؟ وهكذا يأكلوننا، حين يأكلنا الخوف.

وأعود أفكّر في قدميَّ، أقول: هل اشتكتا؟ أعلم أن الحذاء الذي ألبسه الآن قديم، وأنه مخروق، وعفا عليه الزمن، لكن لا بأس، أليس هذا أوْلى من أن ألبس الجديد دقيقتين ثم يأخذوه مني على الحاجز؟ أليسَ القليلُ أوْلى من اللاشيء؟ أتذكر قبضة حسن على ذراعي، يؤلمني موضع قبضته، أفكر فيما هو أبعد من ذلك، أتذكر اللسعة القديمة في قدمي، وصوت أمي الذي يتردد في أذني: «من يسرق اليوم حذاءك يسرق غدًا أرضَك.»، وأتذكر حسن حين شرحها لي في ذلك اليوم البعيد، قال: «تقصد أمك أن من تركته يسرق اليوم حذاءك دون أن تقاوم، سيسرق غدًا أرضك دون أن يحارب.»، سألتُه حينها: «وما علاقة الحذاء بالأرض؟»، قال: «أنك تملك كليهما!».

أرجع إلى سؤالي: أليس القليل أولى من اللاشيء؟ وأُجيبُني أنا بنفسي هذه المرة: وما فائدة القليل حين تكون أنت لا شيء؟

على الحاجز واقفين، يفتشونني، يدق قلبي بسرعة، وأحاول التقاط أنفاسي، أقول لنفسي ما الذي يوتِّرك؟ أليس المخيم أرضك؟ والحيُّ حيَّك؟ والغرفة التي من خلفك غرفتك؟ والبيت الذي من أمامك بيتك؟ اهدأ قليلًا يا رجل، واحترم نفسك، واحترم عُمرك، لم تعد صغيرًا يا فادي. عَيب! رجلٌ تزدهر شعراتُ اللوغ تحت أنفه ما زال يتوتر كلما عبر الحاجز الذي يمر منه يوميًا منذ سبع سنوات؟ واصلتُ سيري، وكانت التلة تقترب شيئًا فشيئًا، وأرى موضع دفن الحذاء، أقترب منه، أدنو أكثر، وأنزوي نحو التلة، مختفيًا عن عيون الجنود، أراقب الشارع، الشرفات، لا أحد هنا، الليل يخيِّم على المكان، أحفر، ويداي كأيدي القوارض، تحفران بسرعة، وتحفران بعمق، يظهر الكيس، أواصل الحفر حتى أستطيع استخراجه، ألتقط الحذاء، أحضنه بما عَلِقَ فيه من تُرابٍ كما هو، أنفخ التراب عنه، وأترك الكيس مكانه، أحثو التراب فوقه، أشعر أنني أدفن عاري وأتخلص من ذنبي في تلك الحفرة، كان الحذاء -رغم التراب- جديدًا كما هو، لكن خفتت لمعته، كان ثمنًا طبيعيًّا لخوفي، أدفعه دون أن أعترض.

ارتديته، ولا أستطيع وصف شعوري، أحرك كل قدمٍ مرة، أروح وأجيء، وأمام عيني الحذاء القديم. قَفَزت إلى رأسي فكرة، نظرتُ إلى حذائي القديم، ونظرتُ إلى الحفرة، لم أتردد، ولم يخفق قلبي بسرعة، حفرتُ مجددا بهدوء، ومسرورًا بالفكرة التي كأنها التوبة، الكفارة السحرية، توقفتُ عن الحفر، وضعتُ الحذاء القديم في الكيس المهترئ، ثم دفنتُه. الآن صار في قدمي حذاءٌ واحد جديد، ولا بدائل. أما القديم، فقد دفنتُه إلى الأبد.

أسمعُ صوتًا ما، أظنه لا يجب أن يتعدّى غُرَف النوم إلى خارجها، نهنهات، وأنفاس، وحركة، صوتًا قريبًا لا يأتي من ناحية أذني اليسرى، ولا أذني اليُمنى، تفقدتُّ جانبيَّ فلم يكن من أي بيتٍ منهما. كان الصوتُ الآتي من أمامي، وكان الكرسي الذي يطلُّ طرفُه من خلف قضبان الباب الحديديّ لبيتنا المسروق في الحي، الكرسي الهزاز الذي مات عليه أبي، يتحرك بصعوبة، وفي آخِرِه أقدامٌ تلتف، تندفع، تتحرك، تصعد لأعلى وتهبط لأسفل، إحداهما لذكر، والأخرى لأنثى، والصوتُ يعلو، يشقُّ صَمتَ الليل، والكرسيُّ كأنه يمدُّ يديه، يقول: «النجدة!»، ويكاد يصرخ، وأسمع بقعة الدم، دم أبي، تصرخ، تقول: «لا!»، تقول:

«أنقذوني!»، تتجلى أمامي صورة أبي، يقول: «لا تتأخروا!»، الآن أفهم، تلتفُّ الأقدام أكثر، يشتدُّ الثقل على الكرسي، عِبءٌ ثقيلٌ مُطبِقٌ على نَفَسِه، لا يستطيع التحرك، مع أنه لم يُخلق في الأصل إلا ليتحرك، حتى وإن كان فارِغًا، حركتُه حياتُه، اهتزازُه طريقتُه التي يتنفَّسُ بها، تهدأ الأقدام، ويتوقف الكرسي عن الحركة الثقيلة، تنقطع أنفاسه، وتشتد الأنفاس التي فوقه، وتنهج بسرعة، ثم تبطئ، وتحضرني صورة أمي حين نظرت إليَّ بعينين حازمتين، ويحضرني صوتُها حين بكت في حضني، وتحضرني أنفاسها التي استودعتها في عاتقي، وأشعر في صدري بشيء، شيءٍ ثقيل، حار، ينتفض، يبرق، يصرخ، ثم يصمت، ثم ينتقم، إنه شيء يشبه الثأر تماما.

الآن أدرك ما رأت أمي قبل سنتين! سنتان من الكتمان يا أمي؟ كيف احتفظتِ بهذا السعير في صدرك لسنتين؟ أدركت ما الذي حدث في ذلك اليوم البعيد حين كانت تبكي، يوم ذهبَت لتشتري لي الحذاء الجديد، وعادت أمي سيدةً أخرى بعد ما رأته، وتضع طرف حجابها على فمها، وتحاول أن تكتم بكاءها، وقد سقط منها حذائي، أعرف أخيرًا ما وراء تلك الحرقة التي انتقلت أولًا من صدرها إلى

جوفي، أسمع النهنهات ذاتها مجددًا، وأسمع صوت أمي، أرى قدمين تلتفّان في حُمّى، وأرى أبي غارقًا في دمائه، تتعارك الأصوات: «آه»، «بيتي يا ولاد الكلب!»، «آه»، «لا تتأخروا!»، «آه»، «انسَ كل ما حدث!»، «آه»، «بل أذكره، أنساه؟ أتذكره؟ أيهما يُعد عقوقًا؟ ما الذي فيه عصيانٌ أكثر؟»، «لا تأكل قبل أن تأتي بحذائك»، تهدأ النهنهات بالتدريج، ويعلو صوت خطواتي في الأرض، أصل إلى الحاجز، والصورة التي هناك لا تفارق عقلي، يفتشونني، وضربات قلبي لا تدق بسرعة، بل تخفق أبطأ من أي مرة، في برود، لكن السرعة والخفقان انتقلا إلى عقلي، والنار في صدري، والحُرقة في فؤادي، والشيء الخفيُّ الذي يشبه الثأر تمامًا يفور في دماغي، وفي قدميّ الحذاء الجديد، وقد بدا أن الرياح مسحته بدواماتها فعاد إليه بريقه، ورُدّت إليه لمعته، تنعكس فيها وجوه الجنود، الذين لم يستوقفوني على الحاجز حتى الآن، ولم يسألوني عن الحذاء. ويبدو أنهم وضعوا حاجزًا جديدًا الليلة. أريد أن أصفع نفسي، أصفعني بالفعل، الشارع خالٍ من الجميع، أصفعني مجددًا، وأقول ماذا إن كنتُ تركت الحذاء في مكانه عشرين سنة خشية أن يسألوني عنه؟ ماذا إذا كانوا سألوني فِعلًا

ولم أسمعهم؟ حينها، على الحاجز الثاني، رأيتُ شِفَاهًا تتحرك، وأيادي تستوقف، وسمعتُ ضجيجًا ينادي، وأنا غارقٌ حتى أُذنيَّ في صوتٍ أعلى، وإن كان يأتي من بعيد، لكنه مرتفعٌ إلى حَدِّ عدم سماع أي شيء بجواره، يقول الصوت غاضبًا: «إنَّ الطريقة الوحيدة لتبقى حُرًّا هي ألّا ترى إلا ما تريده، حتى يصيرَ ما أردتَه هو المرئي.»، وأعود إلى ما رأيت، فأتذكره، بينما يستوقفني الجنود ولا أراهم، وأجد الحقيقة مُركّبة، ومُعقدة، إنني لستُ «لا أرى» شيئًا، وإنما دائمًا ما تكون أمامي صورتان، ويكون عليَّ أن أختار واحدة، هذه الواحدة يجب أن تكون الحقيقية، لأن الاحتمال الثاني الوحيد هي أن أرى المزيفة، وحينها سأكون قد رأيتُ الوهم، بينما فاتتني رؤية الحقيقة.

أدخل المخيم، وتكون ندى هناك، على باب بيتها رغم الظلام، تنظر إليَّ، ترقبني في قلق، وأنا لا ألتفتُ إليها، ماضيًا فيما أنا فيه، داخلًا إلى البيت، وحسن يشرب الشاي، وأمي تنظر إليَّ، وأبو حسن يرقبني في صمتٍ حذر، والكل يصوِّبُ أنظارَه نحوي، ويقوم حسن من مكانه على الفور، يستقبلني، يعانقني، ثم ينزل على الأرضِ فَورًا، في حركةٍ سريعةٍ ظننا منها أنه سقط، كان يُقَبِّل

حذائي ويقول: «أخيرًا يا رجُل، يا رجُل، أخيرًا استعدتَه يا فادي!»، ويقوم ويحضنني، ويهمس في أذني: «أخيرًا دفنتَه يا فادي؟»، وينظر إلى أبي حسن، فيبتسم، وينظر إلى أمي، فتبتسم جدًا، تفتح ذراعيها لتحضنني، وتعود إلى قلقها، إلى ملامحي المحطوفة ووجهي الأصفر، يسألونني ماذا جرى؟ ما الذي حدث؟ هل ضايقني أحدٌ عند الحاجز؟ هل قال لي أحدٌ شيئًا؟ هل ضربني أحدهم؟ لم أقل شيئًا، تدثَّرتُ في صمتي، قمتُ، وانزويتُ في ركن الغرفة، وفزِعت إليَّ أمي، أحاطتني بذراعيها، وشملتني بحضنها مُجَدَّدًا، كأنها عرفت ما رأيتُه من دون أن أحكي، فاختفيتُ في صدرها، وبكيتُ بُكاءً مريرًا من حلقي، ويرتعش جسمي بينما تضمني، وأكتم في كتفها عينيَّ الدامعتين بغزارة، الضعيفتين جدًّا، الحازمتين للغاية، وأشعرُ بنار القهرِ في أحشائي، هل رأيتَ من قبل بُركانًا يبكي؟ لن يقذف ماءً، وإنما حِمَمًا.

خذها ولا تخَف

مال أبو حسن نحوي، قَبَّل رأسي وقال:

ـ الآن كبرت.

أخرجَ مفرشًا من صوفٍ مَلفوفًا حول شيءٍ ما، وضعه أمامي وابتسم مُترَقِّبًا ردة فعلي، قال:

ـ خُذها ولا تخف.

تحسَّستُ ما وراء هذا المفرش، نظرت إليه فجأةً مَذهولًا، أهي ما في بالي؟ قُلتُ السؤال في سِرِّي، لكنه أجابني:

ـ إنها ما يدور في بالك الآن يا فادي.

فردتُّ المفرش، ووجدت ما لم أكن أتخيله -قبل هذه اللحظة على الأقل-. ألمسها برهبةٍ لم أشعر بها أي وقتٍ في حياتي قبل الآن، ينظر لي، ويبتسم، وتبتسم أمي، وحسن، كلهم كانوا يعرفون السر، ولم يذهل غيري، وما زِلتُ أحملها، أحضنها، ألثمها، ويقول أبو حسن:

ـ هذه وصية أبيك لك، والإرث الوحيد الذي تركه.

ـ ولم يحكِ لي عنها أبدًا؟

ـ هذا كتمانُ المقاومين يا ولدي.

ـ وهل استخدمها من قبل؟

ـ اللّه يرحمك يا أخوي! بل استخدمها كُلَّ يومٍ حتى لَقِيَ رَبَّه.

ـ كيف؟ وأين؟

ـ كُنتَ في التاسعة من عمركن حين سَمِعتَ عن عمليةٍ خلف السياج، ليلة عيد الأضحى، حيث تسلَّلَ المقاومون في ظلمات الليل، وقتلوا ضابطًا وجنديًّا يهينان الأهالي في السوق، واحتفلنا حينها، وقلنا إن «الجدعان» ثأروا لأم حسن.

ـ أجل، كان يحتفل في البيتِ معنا ويقول: ينصر دينهم الجدعان!

ـ كان أبوك واحِدًا منهم، «جدعان المخيم»، الذين خرجوا ليلتَها في الظلام، وتجاوزوا الأسلاك الشائكة، وأتوا لنا بالنهار قبل مَوعِده بخمس ساعاتٍ على الأقل.

كانت أمي مبتسمةً، متكئةً على الجدار، تومئ برأسها، وتتمتم بدعواتٍ -أحسبها لأبي- في سِرِّها، تصدق على كلام أبي حسن، قالت:

ـ في آخر ليلةٍ لنا في البيت أوصاني بالبندقية، وأخبرني بمكانها، قال: «إنها لفادي، إن أراد الله الموت قبل أن أسلمها له بنفسي، فلتحفظيها له، وليسلمها له عَمُّه أبو حسن حين يرى فيه النُضجَ واكتمالَ الرجولة وانعدامَ الخوف، لأن الجبان لا يستطيع أن يُقيمَ صُلبَه ولا أن يشد قامته. وإن أوّلَ درسٍ في المقاومةِ أن تقفِ ألِفًا، فتكونَ ألْفًا، وفي كتفك كَعبُ بارودتك، وفي عينك رأس عدوك، وفي قلبك يقينٌ بربك، وفي إصبعك سداد رميك، وتحت زنادك نارٌ

تأكل مَن أخرَجَك من جنتك، فمتى شعر فيه عمُّه أبو حسن الأهلية لذلك كله، فليُعطِه وِرثَه، وليثأر لفلسطين قبلي وبعدي، فلا يكونُ دمي ذكرى للنواح، ولا يقبلنَّ فيَّ العزاءَ قبل أن يفعل شيئًا يكون فيه عزاءٌ لبلاده، وفخرٌ لأرضه، وألَّا يرى إلا ما يريدَه، إلى أن يكون ما يريده هو المرئيَّ!».

كانت دموع أمي تنزل بهدوء، قَبَّلتُ بارودة أبي، وحضنتها، وسالت دمعتان على خدي، قَبَّلتْ أمي رأسي، وحضنني أبو حسن، ونظرتُ إلى حسن نظرةً تحمل الكثير من علامات الاستفهام، أومأ برأسه، وقال:

ـ كنتُ أنتظرك.

عرفتُ أنه كان يتسلَّلُ مني بالليل، يقتَطِعُ ربما أوقاتًا لا أنتبه له فيها بالنهار، كانت مواعيد تدريباته، يتلقَّاها على أيدي «جدعان المخيم»، الذي يشغل أبو حسن فيهم منصبًا قياديًّا. ذلك الرجل النحيل الطويل، كثير الصمت كثير التَبَسُّم، كثير التأمُّل، الذي لو رآه أيُّ أحدٍ فلن يتخيَّلَه ذات يومٍ يحمل حجرًا، وإنما هو المُستَضعَفُ الذي حاول المقاومة حتى الرمق الأخير، حتى أخذوا منه بيته،

وطردوه منه، حملوه حملًا وقذفوه إلى الخارج، وسَلَّموه خيمةً، عاش فيها يبكي أطلالَ دارِه، وهو بالفعل لا يملك إلا الرثاء، وأن يقاومَ كلما نادى مؤذن الاشتباك. لكن أن يكونَ هو مؤذن الاشتباك بنفسه؟ قائدًا؟ ينصر دينك يا سيد القادة! وأتيه في أفكاري: ماذا لو لم آتِ بالحذاء؟ لو لم أتحلَّ بالشجاعة في لحظةٍ مفصليةٍ كتلك، إلى متى كنتُ سأبقى خائفًا؟ يأكلني خوفي ويقتلني ويحرمني من بارودة أبي؟ أسمع صدى كلام أمي، وأرى عينيها الحازمتين حانيتين، أفهمها أخيرًا: «من يسرق اليوم حذاءك، يسرق غدًا أرضك!»، أفهم كيف يكون الحذاء، مجرد الحذاء، طريقًا إلى الأرض، كيف تكون عقوبةُ التفريط في كندرتي حرماني من بارودة أبي.

يبتسم أبو حسن، يضحك ضحكةً قصيرةً بينما ينظر في فراغ الغرفة، يرى شيئًا لا نراه، أو شخصًا يتجلى له وحده:

ـ اللّه يسهل عليك يا أبا فادي، لا أنسى يومَ جاءني في البيت فجأة، طَرَقَ الباب ودخل وأغلق خلفه، أخرج منَ تحت عباءته مُسدَّسًا، وضعه في كفي ومن فوقه كفه، قال: «أخوي أبا حسن، عاهِدني على أن

نمشي معًا ذلك الطريق!»، قَبّلتُ يده التي فوق المسدس وقلت: «عاهدتُّك يا أخوي، والله على ما أقول شهيد»، وتعانقنا، لم يستغرق الأمر أكثر من ذلك، ومنذ تلك الليلة ونحن نذهب للتدريب مَعًا، كُنّا ستة رجال، ومع الوقت صار الستةُ ستين، وكبرنا مع كل وقتٍ أكثر، ويومَ باغتونا في التهجير لم يكن من الحكمةِ أن نقاتل حينها فنُقتل وتتركوكم تخرجون من البيوت ولا يبقى معكم رجالٌ يحمونكم بعد أن ينكشف سرنا وتظهر حيلتنا، تشاوَرنا، وكان الرأي ما رأيتم يومها، آثرنا الصبر والإعداد، حتى يأتيَ اليومُ الذي نثأر فيه. صمت أبوك يومها ولم يقل شيئًا، وفي ساعة التهجير أدركنا ما الذي كان يدور في رأسه، كان يقول لي: «إن الطريقة الوحيدة لتبقى حُرًّا هي ألّا ترى إلا ما تريده، حتى يصيرَ ما أردتَه هو المرئي!»، حينها فهمت. كان استشهادُه طعنةً في خاصرتنا، خاصرة جدعان المحيم، لكننا ربطنا الجرح، وبقيت ذكراه تسألُنا كل يوم: متى تثأرون؟

أنظر إلى الفراغ نفسه الذي كان يحكي فيه أبو حسن، كأنني أخاطب أبي في المكان ذاته، أقول:

ـ والله قريبًا يابا، هوينة يا أبا فادي، هوينة.

وابتسامةٌ عريضة ترتسم على وجوه الحاضرين الثلاثة، ينظر لي حسن، ويتأهب لدوره في تلك الاعترافات الليلية:

ـ أتذكُر حين سرق الجنود حذاءَك وجئتُ معك حتى نسترجعه؟ في تلك الليلة حدثني أبي، قال: «صِرتَ اليومَ رجلًا يا ولدي، وغدًا أخوك فادي يلحق بنا حين يشتد ساعده وينبت شاربه، فيحمل البارودة دون أن يهتز، ويقف أمام عدوه دون أن يضطرب». أعطاني فأسًا، حملتُها وسِرتُ خلفه حتى سَلَّمَني إلى الجدعان، كنتُ صغيرًا، وجسمي أكبر من سني، نزلتُ مع الشباب، ثم بدأتُ الحَفر، وعُدتُ من تلك الليلة مرفوعَ الرأس، وإن لم أكن قادرًا على رفع ذراعيَّ من حمل الفأس طوال الليل.

وضع أبو حسن يده على كتفي، وسدد عيونه في عينيَّ بين حَزم المقاوِمِ وحنان الأب:

ـ وكذلك أنت يا فادي، ستحمل البارودة، لكن قبلها ستحمل الفأس إلى أن تقوي عضلاتك، وتقضي مدةً في التدريب، ثم تتسلمها، وبقية التفاصيل

ستعرفها تِبَاعًا، كلٌّ بوقته إن شاء الله. الآن نتركك أنا وحسن نصف ساعةٍ ثم نعود، أمك تعرف ما ستجهزه لك من عُدَّة، جَهَّزَته لي ولأخيك من قبل، ثم صَلِّ ركعتين قبل أن نأتي لنأخذك.

قام أبو حسن وعانَقَني، كان عِناقًا مُختَلِفًا، يحمل الكثير، كأنه قام رَجُلًا غير الذي جلس، ليس حضن العم لابنِ أخيه، ولا حضن الصديق لابنِ صديقِه، ولا حضن الأبِ لابنه، وإنما حِصنًا أظنه حضنَ القائد للجندي. وكذلك كان حصنُ حسن، حضن أخٍ لأخ، لكن في أرض المعركة.

انصرفا، وأنظر إلى أمي، وتنظر إلي، نتبادل النظرات دون كلام، إلا مِن دعواتِها: «الله يرضى عليك يمَّا.»، تُربِّت بيدها على ظهري، وتأخذني من حضنها إلى المثول أمامَها. تضع يديها فوق عُضُدَيَّ وفي صوتِها أزيزٌ كأزيز المِرجَل:

ـ الآن كبرتَ يمَّا، وحان وقتُك، يعزُّ عليَّ أن تكون في خطر، لكنك لا تعزُّ على بلادك، الليلة أُولى ليالي رباطك، وإني أستودعك الله؛ دينَك وأمانتَك وخواتيم أعمالك، وأهبُكَ له، نفسك وروحك وعمرك، وأسأله أن يحفظك بعينِه التي لا تنام، وأن تحفظ أرضَه

التي جعلها أرضك، بعينك التي لا تنام ما دُمتَ مُرابِطًا، وأن تُسعِدَ قلب أبيك في قبره، فأنا أعرف أباك؛ منذ ماتَ لم ينم، أراه ينتظرك، تؤلِمُه جِراحُه، ويوجعه فراق البيت، وينتظرك أن تطيّبَ مرقده، وأن تثأر من قاتِلِه، وأن تكون واحدًا ضمن الآلاف الذين سيُكتَبُ بأسمائهم وعَرَقهم ودمائهم تحرير هذه البلاد. وبخصوص الحَفر يمًّا، أوصيكَ وصيةَ جدك لأبيك حين كان يَفلَحُ الأرض: إذا أمسكتَ الفأس فاجعل انحناءك كالركوع، وإذا رفعته فاجعل يديك توازيان أذنيك، كتكبيرة الإحرام، وإذا أمسكت يده فاقبض عليها كأنك تمسك بحبل نجاتك، وإذا ضربتَ فاضرب واثِقًا كمن يبحث في الأرض عن ماء، وإذا رفعت قامتك فاستوِ كَمن يقوم من الركوع، وإذا انتهت ليلتك وانقضت مهمتك، فاسجد وسَبّح باسم ربك الأعلى، وإذا قُمتَ من السجود فاجلس للتشهد وردد الشهادة، وسلم على الملائكة الذين يرابطون معكم، والزم الكِتمان، وتجنب الرياء، وإياك إياك أن يغرك عملك، وتذكّر

أنك لا شيء من دونه، وهو كل شيءٍ ولو كان من دونك.

لم أرِد على ما قالت أمي شيئا، قَبَّلتُ يدها ورأسَها وقَدَمها، وقَبَّلَت هي يدي، ولولا قسمي وإصراري لقَبَّلَت قدمي، يدها على رأسي، تضمني إلى حضنها، وفي خيالي صورتان لها؛ بين أمس واليوم، بين بكائها المحموم ودموعها المطمئنة، بين سخطها ورضاها، بين اشتعال جذوة الثأر في صدرها ويقينها في هدوء الشعلة، قليلًا، قريبًا، حين يؤخذُ بالثأر وحينها، سيكونُ ثأر فلسطين كلها على مرمى حجر.

تقطع شرودي البعيد، تقول:

ـ والحذاء يمّا، أتعرف؟ قبل عامين، حين ذهبتُ لأشتري لك الحذاء من السوق، كنتُ أتمنى أن تستخدمه في العمل مع الجدعان، وتلحق بحسن، لأني كنتُ أعرف، اشتريتُه لكنَّه سقط من يدي قُبالَةَ بيتِنا حين رأيتُ كرسيَّ أبيك يُدَنَّس، وسقط الحذاء قبالة بيتنا، وقبالة كرسيّ أبيك، كأنه الذي رتَّب الأمر ليراك. واليوم، حين ذهبتَ لتُحضِرَ الحذاء،

خِفتُ عليك، لكن قلبي في الوقت ذاته كان يقفزُ فرحًا، لأنك صِرتَ رَجُلًا. قلتُ: فادي كبر، رددتُ على نفسي: فادي كبيرٌ من يومِه.

حَضَنتني، كنتُ قليلَ الكلام هذه الليلة، أسمع فقط، والأمر جلل، والحدث أكبر من أي حديث، وأرى أبي ينظر إليَّ راضيًا، ثم ينظر إلى قاتليه في غضبٍ وحنق، يأتيني طيفُه، يقول: «ابني يا ولاد الكلب!»، ويغيب ثم يأتي، يومِض، أرى طرف كُرسيِّه الهزاز، وأقدامًا تلتفُّ بحرارة، وأنفاسًا متصاعدة، وأصواتًا تعلو، بينما يُخيَّلُ إليَّ أن بُقعة الدم تكبر، وصوت أبي يعلو فوق صوت صاحِبَي اللحظات الحميمية على كُرسيِّه الهزاز، يقول لي: «لا تتأخروا!»، والآن يمدُّ يده لأول مرة، بعدما كان عاقِدًا يديه خلفَ ظهره، فَكَّ عقدتهما، ومَدَّ يُمناه، لم أستطع لمسها، ولا مصافَحَتَه، وإنما كانت قريبة، تتضخَّمُ في الفضاء، بينما يكبر أبي أكثر وأكثر، حتى يملأ الغرفة، وأراه فلا أرى سواه، ويغيب المشهد الآخر الذي على كرسيِّه، ويعلو صوتُه فوق أصواتِ العشيقين الوَقِحين.

أغفو على صدر أمي دقائق، أرى فيها أبي، يمسك البارودة، يخلع خزنة الرصاص، يقتلع الرصاصات التي

قتلته من صدره، يمسحها، ينفخ فيها، ثم يعَبِّئها في الخزنة، وكلما نزع رصاصةً اتسعت بسمتُه، حتى إذا لم تبقَ في صدره إلا واحدة، تَرَكَها، قلتُ له: «لمَ لا تنزعها هي الأخرى؟»، قال: «هذه تنزعها أنت.». مددتُ يدي لأخلعها، تبخَّرَ طيفُه من أمامي وبقيت البارودة كأنها معلقة في الهواء، والخزنة الممتلئة خارجها، ويدي تمتدُّ لتُمسِكَ هذه وتلك، فتُعَشِّقَ الخزنة في السلاح، وتمسك البارود تقطع أمي عفوتي، توقظني؛ لأن أبا حسن سيمرُّ في أية لحظة، أتوضَّأ وأصلي ركعتين، بينما نُعِدُّ لي زادي. أنهيتُ صلاتي وأخذتُ حقيبتي على ظهري، وحينَها طَرَق أبو حسن الباب طرقةً خفيفةً جدًا، بينما يقول: «بسم اللّه»

أول النفق

طريقٌ طويلة تحت الأرض، خطٌّ مستقيمٌ حينًا، ومُتعَرِّجٌ حينًا، من مئات الأمتار، أو الآلاف، ممتدٌ إلى الداخل نحو الحي، وممتدٌّ إلى الخارج حول المُخيم، وأطنانٌ من الرِمال تتوزَّعُ على الأراضي المجاورة، وفؤوسٌ تضرب الأرض بقوةٍ وخِفَّةٍ ودِقَّةٍ معًا، وفوق ذلك كله، دون أي صوتٍ يُلاحَظ؛ أيُّ ضربةٍ فوق مستوى الصمت يمكنها أن تضيّع مجهود سنواتٍ في لحظةٍ واحدة. هنا حيث عاش الكثيرون، ومات البعض بينما يحاولون، ومضت الأيام والليالي والأشهر والأعوام، وجنودٌ لم يفارقوا هذا الظلام إلا ساعاتٍ قليلة، لكنه ظلامٌ -على مرارته- مُضيء، وحلوٌ له

مذاقٌ مختلف، كأنَّ جنودًا مُدَجَّجِين بالسلاح حَرَموا قومًا من الشمس على وجه الأرض، فنزلوا يخترعون بأنفسهم شَمسًا جديدةً في باطنها. عالَمٌ كبير، لكنه في الأسفل، في الأنفاق التي يحفرها جدعان المخيم. أشهُرٌ وأنا أحملُ الفأس وأضرب الأرض، نُمَهِّدُها للذين يحملون أسلحتهم، ويخرجون من حيث لا تعلم الغربان، ثم يعودون إلى الديار حاملين نصرهم، ولو كان نصرًا صغيرًا، كإصابة غُرابٍ بالذُعر. كل الذين حرّروا بلادهم يومًا لم يخرجوا مقاوِمين فجأة، ولم تكن معركةً واحدة، وإنما انتصاراتٍ صغيرة، وكثيرة، تقودُ إلى تحريرٍ كبير. آخرُ رصاصةٍ بعد رحيلِ آخرِ جُنديٍّ بدايتُها كانت حجَرًا أُلقِيَ تجاه أول جنديٍّ وَطِئَ البلاد.

ـ ارتَح قليلًا يا حسن.

ـ طاقتي لم تنفد بعد، أشعرُ أنَّ آخر النفق باتَ قريبًا.

ـ وماذا يوجد في آخر النفق؟

ـ الضوء يا فادي.

ـ أليس كلامَ روايات؟

ـ روايتُنا الوحيدةُ التي هي نفسها الواقع.

ما زال الولدُ يضرب الأرض، وأنا بجواره، أحمل فأسي، وأمضي مثلما يمضي، وقد صارت الأرضُ، الأرضُ حرفيًّا، تلك التي من ترابٍ وصخور، صديقَتَنا، رفيقةَ هذا الدرب الذي نشقه داخلها، نرى فيها أنفسنا بوضوح، تتعرَّفُ عليها وعلينا أكثر.

ـ رأيتُ ندى اليوم.

قالها حسنٌ مُفرجًا عن أساريرِه رغم محاولاته للظهور بجِدِّية، صمتُّ مُبتَسِمًا، وانتظرتُ أن يتابع كلامَه، لكنه لم يقل شيئًا، ظلَّت الابتسامةُ على وجهه، وقد بدا الأمر طبيعيًّا، فكيف ستُحَدِّثه ندى أو يحدثها؟ وإنما كل هذه القصة مبنية على النظرات.

أحفر، ونستمر في نوبتنا حتى الفجر، ونتعرف مع كل ضربةٍ على الأرض أكثر، نؤمن بها أكثر، تلك التفاصيل التي في طبقاتها، والمعاني التي تتجلَّى مع كل ذرة تراب، هذا الندى الذي يتخلَّلها كأنَّ سماء أُخرى تُمطِرُ في الأسفل، أنظر إلى حسن بينما يحفر، وأتخيله في ثوب الزفاف، على رأسه الحطة والعقال، وثوبه أبيض ناصع، وندى على يمينه، تحدثه ويحدثها، يقولان شيئًا ما،

يضحكان، ويتمنى الحضور لو عرفوا ما الذي قاله لها فضحكت إلى هذا الحد، وخلفهما أمي، ترشُّ الورد فوقَهما، تزين موكِبَهما بزغرودتها، الزغرودة الأولى منذ رحيل أبي، وأبو حسن، يأخذُها في ذراعه، عروسان يسيران خلف عروسين، وأنا أجذب ذراع حسن، أُراقِصُه وندبك معًا، وهو أول من علمني الدبكة، ويُزَفَّان من بيت أبي ندى إلى بيت أبي حسن الذي في الحي، أما أنا، فأسكن وحدي في بيتنا، بعدما حلف أبو حسن على أمي بالطلاق ألّا يسكُنَ في بيت أخيه وصديق عمره الشهيد أبي فادي من بعده، وإنما يشتري بيتًا بجواره، يعيشان فيه معًا هو وأمي، وأجلسُ على الكرسيِّ الهَزَّاز، قبالةَ بيت حسن وندى، وتجري نحوي صغيرتُهما، أقَبِّلُها وتقول لي: «عمو»، وأقول لها: «يا أحلى عمو بالدنيا!»، وتشكو لي حسن، وتشكو لي ندى، وأقول لهما إن حبيبةَ عَمِّهَا خَطٌّ أحمر؛ من يضايقها فقد جنى على نفسه وقد سَمَّيناها (تحرير).

توقظني «سرينة» المُذرعةِ من أحلامي، نسمعها ضئيلةً خافتة، لكنها مدوية في الأعلى، حملةٌ كبيرةٌ من مدرعاتٍ ومُصَفَّحاتٍ وجنود تغزو الآن المخيم، تفتش في كل بيت، تخرجهم من دورِهم في وسط الليل، تبحث

عن المفقود الذي لم تجده منذ سنواتٍ وحتى اليوم، فجدعان المخيم لا يظهرون، عملهم أصله الكتمان، حتى حفرهم في باطن الأرض مكتوم. هذه الأمتار التي بدأت بحفرةٍ ثم اتسعت لتشمل أنفاقًا بالكيلومترات شرطها كان السكوت، ولا نسكت إلا امتثالًا لأمرها، وهي تقوم بواجبها؛ تُخفِينا وتُخِيفُهم، فلا يصلون إلينا أبدًا، وحتى إن قبضوا على أحد الجدعان، يستمر العمل، فالأغبياء لا يفهمون أن ضالّتهم ليست أشخاص المقاومين، وإنما فعل المقاومة.

في تلك الليلة نفسها اجتمع الجدعان، وقفنا بمكتب العمليات في غرفةٍ تبعد عن الأرض أمتارًا كثيرة، حيث أبلَغَنا أبو حسن باقتراب موعدنا مع المهمة التالية.

ـ هذه المرة لن نكون خارج المخيم، ستكون المهمة في الحي.

ولم يزِد على ذلك. كبّر الشباب -أولاد المخيم والحي- بصوتٍ منخفضٍ لكنه من أعمق نقطةٍ في صدورهم، من مكانٍ ممتلئٍ عن آخِرِه بنوعٍ فاخرٍ من الإيمان، شدوا على بنادقهم، وانتظروا في صمتٍ وتأهُّبٍ ليُتابِعَ حديثه:

ـ في أعناقنا جميعًا دينٌ للرجل الذي بدأ ذلك كُلَّه، حين ابتكر أوَّلَ فكرة، وهَرَّب أوَّلَ مسدس، ونَفَّذَ أوَّلَ عملية، وسَهِرَ الليالي يُخَطِّطُ لما هو آتٍ بينما كان يعلم بيقينٍ عجيبٍ -يشهدُ اللّه- أنه لن يعيشَ حتى يأتيَ ذلك اليوم، لكنه عَمِلَ له.

سكت الجميع ينتظرون اسمه، ليعرفوا من ذلك الرجل الذي ربما كان يعيش في الجبال، أو يسكن الكُهوف، أو يعتزل الناس منذ سنوات طوال. قال أبو حسن:

ـ ستكون العملية داخل الحيّ إهداءً لروح أخينا القائد المقاوم، أبي فادي.

صمت الجميع، وأفواههم مفتوحةٌ مشدوهةً مما سَمِعوه، يتبسمون من خَلفِ كوفياتهم التي يتلثَّمون بها: أيُّ بَطَلٍ هذا الذي عاش بيننا ولم نشعر به! ومات ذات يومٍ ولم نحسب له حِسابًا! أبو فادي؟

ناداني أبو حسن، قَبَّل رأسي وكشف الكُوفيّةَ عن وجهي:

ـ وهذا فادي، أخوكم وابنُ أخيكم، المقاوم ابن القائد. ومعه حسن، سيكونان المُوَكَّلَينِ بالمهمة.

شعرتُ برجفةٍ في قلبي، كان بدني كُلُّه يقَشَعِّر، وأبو حسن يستشعر توتُّري، فيشدُّ بيده على يدي، ويأتي الشُبَّان، جِدعانُ المخيم، يصطَفُّون، يأتي واحدهم تلو الآخر؛ يقبل رأسي، ويعانقني، ويشد على يدي، كان أوّلَ عزاءٍ آخذه في أبي بعد نحو ستِّ سنواتٍ من استشهاده. ويواصل الشُبَّانُ تعزيتي، ولا يفنون، من أين أتى هذا العدد؟ من وَلَدَ جميع هؤلاء؟ ألم يقتلوا كثيرين من أهل الحي؟ ثم بعدما نجا البقية ألم يقتلوهم في المخيم؟ ألم يقتلوا الأجِنَّة في أرحام النساء؟ يتردَّدُ صوتٌ في أذني بقوة، هذه المرة كان صوتي أنا قادِمًا من بعيد، من وراء سنواتٍ طوالٍ يُقال: «مَن يستطيع قتل كل الأطفال؟ أعدادهم أكبر من أعداد الطلقات، ولو كانت أعدادُ الطلقات تكفيهم حتى، فإن القاتل حين يُفرِغُ خزنته تمامًا، ويصوِّبُ آخرَ طلقةٍ في صَدرِ آخرِ طفل، ويضحك ما يظنها في قرارة نفسِه ضحكةَ المُنتَصِر، سيُفاجَأ بصوتٍ يذبح نشوته ويقطع غروره، يقول: «واء واء»؛ إنه مولودٌ جديد».

قَبَّلتُ يدَ أمي وحضنتُها، قَبَّلَت رأسي، وقالت بينما تتأمل ملامح وجهي ورأسي بين يديها الحانيتين:

ـ تُخفي عَنّي شيئًا يا حبيبي؟

ـ لا تقلقي يمَّا، كُلُّ شيءٍ بخير.

ـ تكذب عَليّ؟

ابتسمتُ، ففَهِمت الإجابة.

ـ أبوك يبلغك السلام.

ـ كيف؟

ـ جاءني في المنام الليلة الماضية، كان كعادته، جالسًا على الكرسيّ في مدخل البيت، بهيئته في لحظة استشهاده، ويقول: «ابني يا ولاد الكلب!»، لكنه لا يقولها غاضِبًا، وإنما وهو يضحك، ويرفع رأسه، وتمتد رقبته: «ابني يا ولاد الكلب!»، وترتفع رأسه أكثر، ويرتفع جسمه كأنه محمولٌ على بساط، يراه الجنود على الحاجز، يصوبون تجاهه بنادقهم، يطلقون الرصاص فلا يصيبه، يصوبون مجددًا فلا يصل إليه، حتى نفد ذخيرتهم، وفجأةً تظهر أنت، تعبر بينهم، لا تحمل في يدك شيئا، ورغم ذلك كلما مررتَ بهم يسقطون من تلقاء أنفسهم، ولا يقومون مجددًا، ويقول أبوك وصوتُه يدوي في كل فلسطين: «أرضنا يا ولاد الكلب!»، ثم تتلاشى صورته تدريجيًّا، وهو يقول: «أبلغي فادي مني السلام، قَبّلي لي رأسَه ويدَه، وقولي له: سلمت يُمناك!».

فتحت أمي يدي، وضعت فيها مسدسًا. وقالت مجددا:

ـ أبوك يبلغك السلام.

***

سَلَّمَنا أبو حسن الخطة، عَرَّفَنا بكل التفاصيل، لَثَّمَنا بالكوفيَّات بإحكام. ضَبَطْنا ساعاتِنا على الموعد المحدد، بدأنا السير من أول النفق، بأحد أطراف المخيم، حتى وجدناه كما في الخريطة ينقسم في نقطةٍ محددةٍ إلى خطين؛ أحدهما إلى الداخل حيثُ يمر تحت الحي مُباشرةً، والآخر طويلٌ يمرُّ حول المنطقة بأسرها، ويعود إلى الخارج ويختفي في التلال. قطعناه وخرجنا من نقطةٍ فيه، قريبةٍ من الحي، وبيننا وبين الهدف مائة وخمسون مترًا، قطعناها زَحفًا على بطوننا. وفي طريقٍ أُخرى تقود نحو الهدف ذاته، كان اثنان من الجِدعان يُحدِثان آثار أقدامٍ تضليلية، ويتركان علاماتٍ تشتت عملية البحث بعد المهمة، وتُعَسِّرُ جهود المخابرات.

بيننا وبين الساعة المحددة دقيقة واحدة، أحمل بندقية أبي، وحسن معه بندقيته، مُلَثَّمَين، وقلبي يدقُّ بإحكامٍ كعقارب الساعة، تداهمه رهبة اللحظة، فيطردها بدِقَّة الخطة، ويركز في التنفيذ الذي على بُعد خمسين ثانية.

الفأر في المصيدة

أشير إلى حسن، يتسلَّلُ هو أولًا، يعرف طريقَه جيدًا، لم يتعثر ولم يتردد لحظة، كأنه تدرب على الحركة مائة مرة، يعبر لمهمته وأودعه بعيني، ولا مجال لعاطفةِ الأخوة ولا الحب ولا الصداقة الآن، رغم أنها تحضر بقوةٍ مجتمعةً، في هذه اللحظة، تحضر كما لم تحضر من قبل، كأنه اختبارٌ يزيد المهمة صعوبة، ولا وقت للتفكير في قتل المشاعر حتى، تتردَّدُ في أذني كلمة أبي: «إن الطريقة الوحيدة لتبقى حرًا هي ألَّا ترى إلا ما تريده، حتى يصير ما أردته هو المرئي!». أتحرر من مشاعري، أمضي إلى الهدف، إلى المهمة، وأنتظر إشارةً من حسن. لا أسمع صوتًا، وهذا يعني نجاح جزئية حسن تقريبًا، وأرى إشارة، وهذا يعني نجاح حسن في جزئيته تمامًا.

الفأر في المصيدة

أكمل زحفي، تتسلَّلُ رائحة العشب إلى أنفي، أعرفها جيدًا، ما هذا القلب الذي وُلِدَ حَالًا؟ روحي تُرَدُّ إليَّ لأول مرةٍ منذ سنواتٍ طويلة، يا الله! يا دار يا دار! أُكمِلُ زحفي، الهدفُ على بُعدِ عشرين مترًا، أقوم تدريجيًّا، الهدفُ على

بُعد عشرة أمتار، عشر ثوانٍ تَبَقَّت على الساعة صفر، والهدفُ في الحالة المُثلَى للتسديد.

الفأر في المصيدة

أسمي الله وأُكبّرُه، أنقضُّ بسُرعة البرق، وأُسدّدُ بقوةٍ لا تُخالِجُها لحظة توتر، وأنفّذُ الخطة بحذافيرها كما قال الكتاب، عَدا أني استخدمت السكين أولًا بدلًا من البندقية.

أعيرةٌ ناريةٌ تُطلَقُ في لحظةٍ واحدةٍ مُدويةٌ في الهواء من نقاطٍ عِدَّة حول أطراف المخيم.

الجنود يهرعون من الحاجز إلى مواقع إطلاق النيران الشديدة، المستمرة بلا انقطاع.

المُستوطِنة اليهودية التي جاءت من روسيا إلى بيتنا وترفَعُ عَلَمًا فوق شُرفَتِنا، ترقد مُخَدَّرةً في المطبخ.

كل سكان المُخيَّم يقفون أمام بيوتهم، عيونُهم مصوبةٌ نحو حيِّهم تارةً ونحو أطراف المُخيَّم تارة، النساء يزغردن، والرجال يُهَلِّلون، وأم فادي تحضن ندى، وندى -التي لم تنطق منذ ثماني سنوات- تقول: الله أكبر.

الضابط اليهوديُّ الذي جاء من بولندا إلى بيتنا وقتل أبي غارِقٌ في دمائه، بجسمه تِسعُ طعناتٍ، وفي رأسه رصاصةٌ مسدس، وفي قلبه رصاصةٌ بندقية، ساقطٌ على الأرض، واجِمًا لا يتحرك، والكرسيُّ، رغم ذلك كُلِّه، ما زال يهتز.

***

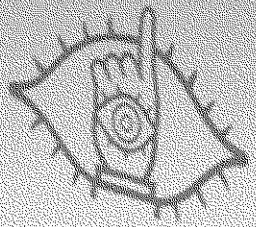

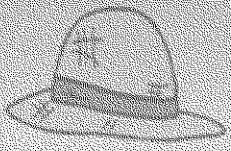

في اليوم التالي، بينما يواصل ضباط المخابرات والمباحث عملهم، يفتشون ويحفرون وينقبون عن أي دليلٍ في كل مكانٍ بمسرح العملية، تَعثَّرَ ضابطٌ بمنطقةٍ متغيرةٍ في التلة عَمَّا حولَها، حَفَرَ بيده حتى أطلَّ منها طرفُ كيسٍ أسودَ مُهترئ، فَزِعَ وثبت مكانه، واستدعوا خُبَراء المُفَرقعات، أتوا وحاولوا تخليصَه من المأزِق، وليعرفوا الجِسمَ الغامض هنا، لعلَّه يقودُهم إلى دليل. شعروا أنه مفتاح القضية كلها. يتحرك خبير الألغام والقنابل في بدلته الضخمة، يضحك أطفالُ المخيم المحتشدون خلف الحاجز على حركاته البطيئة كأنه شخصيةٌ كرتونية، يعامِلونَه على أنه مُهَرِّج، فقرة في سيرك، ومن ورائهم احتشد الأهالي، أمام النقطة الأمنية التي تكتظُّ بفِرَقٍ كاملةٍ من الجنود والقوات الخاصة. حفر خُبَراءُ الألغامِ

بحِرص، حتى استخرجوا أخيرًا الجسم الغريب، نَفَخَ الضابطُ الذي استخرجه من الضجر، وضع يده في جَنبِه بينما يحملُ الجِسمَ في يده الأخرى، يضحَكُ ساخِرًا من نَفسِه ومن الجنود ومن ضُبَّاط المباحث والمخابرات والقوات الخاصة، والحاجز، والجيش الذي لا يُقهَر، ويصرخُ ضاحِكًا: «إنه حذاءٌ قديم!».

وعلى الطرف الآخر، وراء الأطفال الساخرين، الذين يرتدون أحذيةً تشبه كلها الحذاء الذي اكتشفوا نُسخةً قديمةً منه، تقف أم فادي، ووَحدَها تَعرِفُ جيدًا ما تراه، وتقول في سِرِّها بينما تضحك بشِدَّةٍ في داخلها: «إنه حذاء فادي!».

***

تمت بحمد الله.

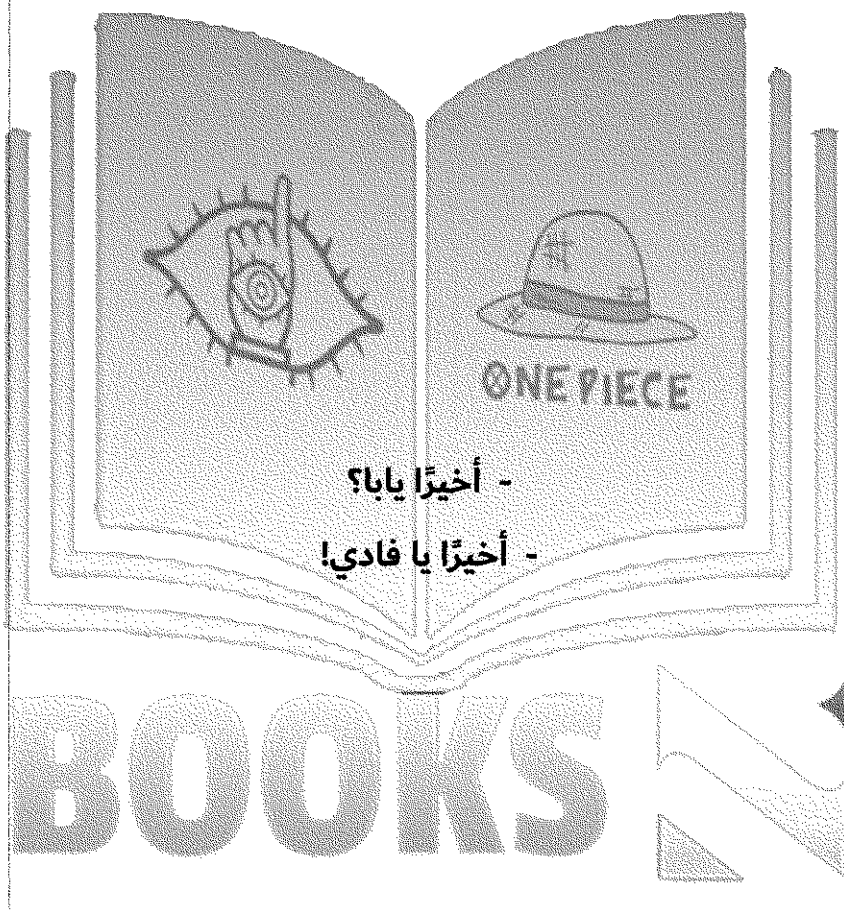

- أخيرًا يابا؟

- أخيرًا يا فادي!

يوسف الدموكي

17 يونيو 2021